الماركسية

في إطارها التاريخي

تيودور ويزرمن

ولـد تيودور ويزرمان،
العضو المراسل في أكاديميـة
العلوم السوفياتية ، والاستاذ
في جـامعة موسكو في عـام
١٩١٤ . وقد تفرغ لدراسة
تاريخ الفلسفـة في الغرب ،
وله اكثر من مئة مؤلف ، منها
دراسته المعروفـة : ظهـور
الماركسية .

تيودور ويزرمن

الماركسيّة
في
اطارها التاريخي

فهرس

مقـــدمة

نادرون هم اولئك الذين كان بوسعهم قبل مئة عام استشفاف مستقبل النظرية التي صاغها كارل ماركس وفريدريك انجلس. اناحد زعماء الراديكالية البورجوازية الالمانية في الاربعينات منالقرن الماضي، برونو باور كان يأخذ على ماركس افتقاره الى الروح الانتقادية تجاه البروليتاريا ، ومبالغته في دورها ، وحتى تأليهها

الا ان ماركس وانجلس اللذين كانا بعيدين جـدا عنتأليهها وبعيدين جدا عن نسبة قدرة خارقة اليها، وهذا ما اكداه من ناحية اخرى في ظروف عديدة، قد اكتشفا في الواقع في هذه الطبقة قوة ثوريـة قـادرة على النضـال دون وهن ضد كل اضطهـاد اجتماعي وقد كتبا قائلين بان الشيء الاساسي هو انه « في ظروف وجود البروليتـاريا ، تتكثف كل ظروف وجود المجتمع الراهن بشكلها الاكثر صفة لا انسانية ؛ فالانسان قد اضاع نفسه ، لكنه فيالوقت ذاته لم يكتسب الوعي النظري لهذا الضياع فحسب، بل اضطر مباشرة ، بفعل **الشقاء** الذي اصبح محتما،

والذي تستحيل مداواته ، والذي لا يقاوم بصورة مطلقة ــ بالتعبير العملي للضرورة ــ الى التمرد ضد هذه اللاانسانية : ومن اجل ذلك كله ، انما تستطيع البروليتاريا ، ويتوجب عليها ان تحرر نفسها » .(١)

لكنها لا تستطيع أن تتحرر دون ازالة الثوابت الاقتصادية للمجتمع الراسمالي الا وهي الملكية الخاصة لوسائل الانتاج والمزاحمة ، والاستثمار ، وفوضى الانتاج. ان التحرر الاجتماعي للطبقة العاملة يصبح ايضا تحرر كل الشغيلة ، وكل المستثمرين والمضطهدين. على هذا النحو حدد ماركس وانجلس قبل مئة عام الرسالة التاريخية والعالمية للبروليتاريا. فالاشتراكية العلمية التي لم تكن في ذلك الوقت الا مجرد اتجاه الى جانب نظريات اشتراكية طوباوية تسود الحركة العمالية ، قد كسبت اليوم الى جانبها حركة تحرر الطبقة العاملة والجماهير الكادحة غير البروليتارية .

ان نظرية ماركس وانجلس التي اغناها لينين بتجربة جديدة اصبحت راية الثورة الاشتراكية الاولى في التاريخ، ثورة اوكتوبر ١٩١٧ . والماركسية ــ اللينينية هي علم بناء المجتمع الجديد. وهي تعتبر كذلك من قبل شعوب البلدان الاشتراكية .

ويتوجب على اعدائها ان يضعوا في حسابهم قوة جذبها . وفي كتاب **حرب او سلم** (الذي صدر

---

(١) ك. ماركس ، المؤلفات الكاملة والمؤلفات الفلسفية ، مجلد ٢ ــ العائلة المقدسة ، **باريس ١٩٢٧ ، صفحة ٦٢ .**

في عام ١٩٥٠ ، والذي راجعه المؤلف في عام١٩٥٧)
وهو كتاب ينظر اليه ايديولوجيون عديدون من
ايديولوجيي الرأسمالية الحديثة ، والرأسمالية الاميركية
بالدرجة الاولى ، بمثابة دستور ايمانهم ، سعى جون
فوستر دالس الى اكتشاف اسباب تلك « القدرة
الخارقة » للماركسية – اللينينية التي تسيطر على
« فكر ملايين الناس » ، وذلك انجذب الذي لا يقاوم
الذي يمارسه البرنامج السوفياتي لبناء الاشتراكية
على اولئك الذين « يعتبرون انفسهم مضطهدين او
مظلومين » وكذلك على « المثاليين » الذين يحلمون
بتحسين العالم .

ان تعبير « الذين يعتبرون انفسهم » ، (كما لو
كان لا يوجد في المجتمع الرأسمالي لا اضطهاد ولا
ظلم في الحقيقة) وتعبير « المثاليين » الذي يطلقه
المؤلف على اولئك الذين يبدو انه يلومهم لانهم يريدون
تحسين العالم ، هذين التعبيرين لا تنقصهما الطرافة.
ولكن لنترك التحفظات الكلامية جانبا . وبالطبع فان
جون فوستر دالس ، الذي كان بقاء الوضع على ما
هو عليه يلائمه تماما ، لم يفكر ابدا في تغيير المجتمع
الرأسمالي. وهو لم يغرق ابدا في المثالية . ان ما كان
يقلقه هو ان تخسر الرأسمالية المعركة في مباراتها
الاقتصادية مع الاشتراكية بسبب تفوق الايديولوجية
الشيوعية على الايديولوجية الرأسمالية ، حسب
اعتقاده .

وهذا التفسير غير الكافي ، لان السبب الرئيسي
ليس الايديولوجية ، بل تفوق النظام الاشتراكي
للاقتصاد المبرمج ، يحتوي مع ذلك على شيء من

الحقيقة : ان افكار الاشتراكية ونظرية الاشتراكية العلمية تترسخ في ادراك ملايين الناس ، في حين ان الايديولوجية البورجوازية تفقد تأثيرها في العالم الراسمالي ذاته . وكتب دالس يقول : « في حين انه منذ خمسة اعوام انفقنا المليارات استعدادا لنزاع محتمل ، تستخدم فيه القنابل والطائرات والمدافع، فلم نعطِ سوى النزر اليسير جدا لحرب الافكار التي غصنا فيها ولا تستطيع اية قدرة عسكرية مهما كانت كبيرة ان تمحو النكسات التي حلت بنا » (١)

ان دالس باعتباره رجل اعمال يحترم نفسه ، قد راى اسباب الهزيمة الايديولوجية الاميركية في نقص الاعتمادات المسجلة من قبل الحكومة في باب «الدعاية» وكان يأمل ان يتمكن من ان يصنع بواسطة الدولارات « ايمانا صادقا وديناميكيا » لا يوجد خارجه كما كان يقول « سوى حظوظ قليلة بالنجاة ». ويعتبر الكاتب ان المجتمع الاميركي تنقصه الثقة بمستقبله (بالراسمالية بالاحرى) ، وهو يدعو اولئك الذين يسيطرون على مقدرات العالم الراسمالي كي يأتوا بحجج جديدة من شأنها جذب الجماهير واحياء الايديولوجية البورجوازية التي يجب تكييفها مع الضرورات الملحة لعصر وضع تحت راية الاشتراكية المظفرة . وكتب دالس في الختام : « يجب العثور على كلمات تستطيع التأثير على الناس ، هذه هي المهمة الاولى لاساتذة الفكر في الامة » .

هذا هو رأي رجل دولة كان يكره الماركسية بكل

---

(١) ج. ف. دالس ، حرب ام سلم ، نيويورك صفحة ٢٤٩

جوارحه . لنستمع الان الى الفلاسفة . فقد كتب جان لاكروا « ومع ذلك فان الماركسية تواصل الحياة في قلب وفكر ملايين الناس ، قيادة اهم حركة اجتماعية في عصرنا » . (١)

وتتكرر مثل هذه المعاينات دوما في المؤلفات المكرسة لانتقاد الماركسية التي يظهر تأثيرها المتعاظم بمزيد من الوضوح مع ذلك . وهذا ما يفسر دون شك ذلك التساؤل المر لـ ج. كالفيه ناقد الماركسية المعروف : « هل يوجد بين معاصرينا من لا تثيره الماركسية او تبعث التساؤل لديه ؟ » (٢)

ان اخصام الاشتراكية العلمية الذين يعترفون بقوة جذبها الهائلة لا يغفلون ابدا التشديد على الخطر الذي تمثله بالنسبة للنظام الراسمالي . وهم حين يدعون الى مضاعفة الجهود لمكافحة هذه النظرية ، يعترفون بانهم يتعرضون هم انفسهم لتأثيرها ، وذلك بالتحديد بسبب طابعها العلمي . لنترك الكلام لكارل بوبر الاستاذ في جامعة لندن الذي لا يكف عن خوض الحرب ضد المفهوم الماركسي المادي للتاريخ ، وضد كل ما ينطوي عليه من استنتاجات . وهو يريد الاعتراف مع ذلك بان الماركسية تشكل تقدما هائلا بالنسبة لكل العقائد الاجتماعية السابقة فكتب يقول : « لا عودة الى العلم ما قبل الماركسي للمجتمع . فجميع المؤلفين الحديثين مدينون بالكثير لماركس ،

---

(١) ج. لاكروا – الماركسية والوجودية ومذهب الفلسفة الشخصانية – باريس ١٩٥٩ صفحة ٥ .

(٢) ج. كالفيه، فكر كارل ماركس، باريس ١٩٥٦، صفحة ١٣

سواء عرفوا ذلك ام لم يعرفوا » (١)

وبالطبع ، فان نقـاد الماركسية يعملون لمعرفـة مصادر وعوامل انتشارها . ان التفسير الذي اعطاه و. شـلام عضو جمعية جون برش ومؤلف **حـدود المعجزة** ، « انجيل العداء للشيوعية » هذا ، حسب قول تلاميذه ، يستحق ان نتوقف عنده . فالمؤلف يدعي بان روح الماركسية ليست في اعمال مؤسسيها، بل في «الهرطقة البروميثية» التي تمتد عبر العصور، «الهرطقة» التي تتلخص في رغبة الانسان والانسانية في السيطرة على مقدراتهمـا بالانتصـار على قوى الطبيعة العمياء . وبالطبع ، فان هذه الرغبة تنطلق من الثقة المطلقة بالامكانات اللامحدودة للعقل والعلوم والتكنيـك . هـذه هي حسب رأي المؤلف خطيئة الانسان الكبرى ، وليس الخطيئة الاصلية . فهل ان الرغبـة في السيطرة على الطبيعـة والسيطرة على النفس ، هي رغبة اثيمة ؟ ان و. شلام لا ينكر بانها لا تنفصل عن تطور القوى المنتجة والثورة التكنيكية الراهنة ، لكن هذا التقدم يثير جزعه . ويعلن هـذا الرجعي قائلا : « ان الشيوعية تعبّر عن أوج مطامح الانسان من الطراز البروميثي ، الذي يطرح الكون بأسره مجددا على بسـاط البحث ويريـد اعـادة تكوينه » . (٢)

---

(١) ك. د. بوبر — المجتمع المفتوح واعداؤه. لندن — ١٩٥٩ — مجلد ٢ — صفحة ٧٨ .

(٢) و. س. شـلام ، حـدود المعجزة ، زوريخ ، ١٩٥٩ ، صفحة ١٨٩ .

ومهما بدا ذلك متناقضا ، فان عــدو الشيوعية هذا قد ادرك بان المثل الاعلى الشيوعي الذي اصبح نظرية علمية بفضل الماركسية ، يستند الى تطــور القوى المنتجة الذي يستمر دون توقف طوال تاريخ الحضارات ، وان الشيوعية لا تنفصل عن تقدم العلم والتكنيك . وقد كتب يقول : « يكتشف علمــاء من اصحــاب الروح الرقيقة والحساسة في الشيوعية قاسما مشتركا للمشــاعر البروميثية التي وضعت موضع التجربة ، خلال عصور ، الاعصاب المريضة للناس وكبرياءهم » (١)

وبالطبع ، فان هذا الراي ليس رأي كل اعــداء الماركسية. وخلافا لما يدعيه مؤلف **حدود المعجزة** ، فان البعض يريدون ان يثبتوا بان الاشتراكية ليست وحدهــا التي تستفيــد من هذا التقــدم . ويقول الصحفي الالماني الغربي و. شينكيه ، الذي ينتقــد شــلام انتقادا صارما ، بان اسبــاب تأثير مفــاهيم الماركسية لها طابع معنوي وكتب يقول : « منذ اكثر من مئة عام، فان صوت الضمير يتحدث بلغة الماركسية كي يمنع الغرب الراسمالي من الغوص نهائيــا في مستنقع انانية غير شريفــة ومهينة . ان الماركسية تمثل قوة ايقظ قدومها الوعي ، وهي تجعله في حالة يقظة دائمة » . (٢)

اجل ، انه صوت الضمير . وصوت العقل ايضا.

---

(١) نفس المرجع – صفحة ١٩.

(٢) و. شينكيه ، ضد شلام ، او كيف تكافح الشيوعية ، هامبورغ ، ١٩٥٩ ، صفحة ٥.

ان الماركسية قد استولت على النفوس، ويعترف الصحفي الالماني بذلك ، الامر الذي لا يدفع ابدا الى الامام مع ذلك بادنى درجة ، معرفة الظاهرة . وهذا امر يسهل فهمه : يتوجب على نقاد الماركسية ان يفهموا ذلك لكنهم يرفضون دائماً كل تحليل موضوعي علمي لهذه النظرية بالمقارنة مع المبادىء السابقة والوقائع الاجتماعية للعالم الحديث .

ان ما يعطي للماركسية قوتها ، ونحن نأمل بان نتمكن من اثبات ذلك في هذا الكتيِّب ، هو الصلابة العلمية لنظريتها ، والروابط العميقة التي تجمعها بالواقع ، وبأماني الجماهير الكادحة وبتقدم القوى المنتجة، وبالثقافة الفكرية ، وبالمسائل الملحة لعصرنا. ومن اجل اعطاء فكرة عن هذه العلاقات المتبادلة ، سنرسم باختصار فيما يلي الولادة التاريخية والمقدمات المادية والفكرية للنظرية الماركسية، وعملية نشوئها، واجزاءها التي لا تتجزأ (الفلسفة والاقتصاد السياسي ، والشيوعية العلمية) وتطورها وتطبيقها في السياق التاريخي الراهن .

الفصل الاول

ضرورة تاريخية

لماذا ولدت الماركسية حوالي منتصف القرن الماضي ، وليس قبل مئة عام من ذلك التاريخ ؟

يقال انه لكي يتمكن الناس ، من تثمين **هملت** شكسبير ، كان يقتضي ان تكتب هذه المسرحية . وهذا صحيح . ونود ان نضيف فقط بان هذا العمل الرفيع لم يكن من الممكن ان يبصر النور في اي عصر كان ولا في اي بلد كان. فهو انعكاس لوضع تاريخي واجتماعي موضوعي ، اي لوضع مستقل عن ادراك، وارادة ، وعبقرية المؤلف . ان مجال العلوم هو اكثر تعقيدا ايضا . ومع ذلك ، فان مبادىء الميكانيك العقلاني لو لم يعلنها اسحق نيوتن لاعلنها باحث آخر او جماعة من رجال البحث ، الامر الذي لا يقلل بالتأكيد من عظمة ذلك الذي اكتشفها .

وفي سياق الافكار هذا ، يمكننا التساؤل ما اذا كانت النظرية التي نحن مدينون بها لماركس وانجلس، كان من الممكن ان يبدعها مفكرون عظام آخرون . ان المنطق يجبرنا على الرد بالايجاب .

لنحلل الوقائع التاريخية التي سبقت ولادة الماركسية ، والتي نجد تعبيرا عنها في هذهالنظرية.

المقدمات الاجتماعية والاقتصادية

ان النظرية الماركسية قد ظهرت بعد تطور طويل للمجتمع الراسمالي الذي تعود ولادته، كما هو معلوم الى القرنين الخامس عشر والسادس عشر . ان الرأسمالية التي ولدت داخل المجتمع الاقطاعي قد تطورت معرضة للخطر بصورة جدية اكثر فاكثر العلاقات التي تسوده وانتهى بها الامر بان فجرت من الداخل اطارا اصبح بالغ الضيق . وحواليىنهاية القرن السادس عشر ، فان الثورة الهولندية بخلعها نير اسبانيا الكاثوليكية قد فتحت امام هولندا البروتستانتية ، طريق التطور الراسمالي الحر. وقد عجلت الثورة البورجوازية الانكليزية في عام ١٦٤٨، التي كانت ايديولوجيتها تستلهم الدين ، عجلت بصورة فريدة تقدم الرأسمالية فياوروبا . فالفردوس الذي كان البوريتانيون الانكليز يحلمون بانشائه على الارض ، لم يكن سوى صورة للمجتمع البورجوازي، اعطيت صفة مثالية .

ولكن انما في عام ١٧٨٩ ، شهدت اوروبا تحقق ثورتها البورجوازية الاكثر جذرية : ان النزاع السياسي بين فرنسا الارستقراطية الاقطاعية وعامة الناس ، قد بلغ درجة من الحدة لم يسبق لها مثيل. فانتصار البورجوازية الفرنسية دشن السير المظفر للراسمالية عبر القارة الاوروبية ، وعصفت ريح التحرر بالاكثرية الكبرى من امم العالم .

ان هذا الالغاء الثوري للاقطاعية في انكلترا وفي فرنسا ، كان له في الحقل الاقتصادي نتائج لا تحصى، وهي الثورة الصناعية التي حدثت في القرن الثامن عشر في انكلترا ، وفي بداية القرن التالي في فرنسا، وادت الى زيادة هائلة في انتاج الخيرات المادية ومردود العمل . ولم يكف ماركس وانجلس عن التنويه بالدور التقدمي الذي تولته البورجوازية في ذلك الحين . فقد كتبا يقولان بانها قد انشأت في مئة عام قوى منتجة ارفع بكثير من تلك التي كانت قد كدست من قبل كل الاجيال السابقة . ومن عام ١٨٣٠ الى عام ١٨٤٧ ، ارتفع عدد الماكينات البخارية في فرنسا من ٦٢٥ الى ٤٨٥٣ ، وارتفع استخراج الفحم من مليون و ٧٦٠ الف طن ، الى ٥ ملايين و ١٥٣ الف طن ، وتضاعف انتاج الحديد والفولاذ ثلاث مرات ، الا ان هذا النهوض للانتاج ، وهذه الزيادة الخارقة لمردود العمل والثروة الاجتماعية لم يحسنا مع ذلك وضع الجماهير الكادحة ، وعلى العكس، فان هذا الواقع الجديد ، واقع الراسمالية، كان يبرز لوحة مخيفة : تكديس للثروات في قطب من المجتمع ، وبؤس في القطب الاخر ، وفوضى في الانتاج ، وتحول صغار المنتجين الى بروليتاريين ، واستثمار للعمال بما في ذلك الاولاد ، وهو استثمار بالغ الوقاحة ، خصوصا وانه لم يكن هناك اي تشريع يقاومه ، وظروف سكن رهيبة للبروليتاريين ، وغرامات فاحشة ، وكل نوع من انواع الاضطهاد . وفي الاربعينات من القرن الماضي كان العامل الفرنسي يعمل احيانا كثيرة ثماني عشرة

ساعة في اليوم . ووفقا للاحصاءات الرسمية ، ففي كولونيا ، فان شخصا من اصل كل اربعة اشخاص من السكان كان يعيش من الصدقات . ويمكن ان نعطي الكثير من هذه الامثلة النموذجية لكل البلدان الراسمالية في ذلك العصر .

ان البورجوازية، بعد ان تولت القيادة السياسية ووطدت حكمها ، اتجهت ضد الطبقة العاملة الراغبة في تحسين مصيرها بنشاطات اكثر عددا واكثر اتساعا دائما . واصبح الصراع بين البورجوازية والبروليتاريا حاسما . ومنذ القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر ، وهي الحقبة التي دعم فيها البروليتاريون البورجوازية ضد الاستقراطية الاقطاعية ، شرع هؤلاء يدركون ان مصالحهم تتعارض مع مصالح الراسماليين . ومنذ نهاية القرن الثامن عشر ، أعلن الاضراب في انكلترا من اجل تخفيض يوم العمل وزيادة الاجور . وفي ١٨١٩ ، أمرت الحكومة البريطانية باطلاق النار على العمال الذين جاءوا يتظاهرون قرب مانشستر . وفي بلاد الغال ، انتهت الاجتماعات العمالية في ١٨٣٩ ضد ويلات الاستثمار ، بانتفاضة شعبية .

وفي فرنسا ، تجسدت الحركة المطلبية باضرابات متكررة وانتفاضات متقطعة . وفي ١٨٢٢ ، فان اضراب النجارين في باريس واضرابات الخبازين ، والحائكين ، وعمال المناجم ، وصاقلي الحجارة ، والحدادين ، التي جرت في مدن عديدة في البلاد قد كانت كلها دلائل على واقع ان الطبقة العاملة مهما كان نشاطها عفويا وغير متجانس ، ومهما كانت

بعيدة آنذاك عن كل وعي أشتراكي ، قد اخـذت تصبح القوة الحاسمة ، والفاعل الاساسي للثورة .
ومنذ ١٨٣١ ، فان انتفاضة عمال صناعة الحرير في ليون قد ظهرت من نواح عديدة بمثابة ادانـة للرأسمالية .

ان ولادة الماركسية تقع في حقبة انجزت فيهـا التحولات الديمقراطيـة البورجوازية في اوروبـا الغربية وبدأت تتهيأ الثورات البورجوازية لعـام ١٨٤٢ . وفي اكثرية بلدان هذه المنطقة ، لم تعـد البورجوازية طبقة ثورية لانه لم يكن لها مصلحة في السير حتى النهاية بهذه التحولات خشية من استفادة الطبقة العاملة من الحريات الديمقراطية كي تتحرر . وفي مثل هذه الظروف ، فان النضال في سبيل الديمقراطية كان يعني النضـال ضـد البورجوازية المحافظة المصممة على التفاهم مع اعداء الديمقراطية . وكان ذلك ايضا عاملا اساسيا فـي ولادة الماركسية .

ان المانيا ، مسقط راس ماركس وانجلس ، كانت متخلفة من وجهتي النظر الاقتصادية والسياسية بالمقارنة مع انكلـترا وفرنسـا . وفي حـين ان البورجوازية البريطانية والفرنسية ، القوية والغنية، المحتشدة في المدن الكبرى ، وبصورة رئيسية في العواصـم ، كانـت من حيث الاسـاس قد الغـت العلاقات الاقطاعية ، فان النـبلاء الالمـان كانوا لا يزالون يحتفظون بأغلبية امتيازاتهم الطبقية .

ان البورجوازية الالمانية التـي لـم تكن تحوز السلطة السياسية كانت تمثل منذ ذلك الوقت قوة

اقتصادية ملحوظة . ونظرا لان الثورة الفرنسية قد اثارت رعبها ، فقد كانت تتتبع بقلق تقدم البروليتاريا وسير نشاطاتها الاولى . وكانت مع كبار الملاكين العقاريين تخضع الجماهير الكادحة لنير مزدوج. وشهدت الاربعينات من القرن الماضي ظهور عشرات الكتيّبات في المانيا حول « تجاوز » البروليتاريا التي اعتبرت بمثابة كارثة من كوارث التاريخ ، وخطر رهيب على الثروة العامة والحضارة .

وقد اكتشف ماركس وانجلس في هذه الطبقة قوة ثورية حاسمة قادرة على القضاء الى الابد على الاضطهاد الاجتماعي .

وعرفت المانيا ثورتها البورجوازية الاولى . وخلافا لفرنسا وانكلترا ، فلم يكن يوجد فيها دستور ، وكانت الملكية فيها ملكية مطلقة . الا انه من وجهة النظر السياسية ، فان الطبقة العاملة الالمانية في الثلاثينات والاربعينات كانت دون شك اكثر تطورا من البروليتاريين الانكليز والفرنسيين في القرنين السابع عشر والثامن عشر ، الحقبة التي تحققت فيها الثورات ، الامر الذي دمغ بطابعه التصرف السياسي للبورجوازية الالمانية : نظرا لانها لم تكن ابدا طبقة ثورية ، فقد سعت منذ البداية للتحالف مع الملكية الاقطاعية . ونتيجة لذلك ، فان الطبقة العاملة والفلاحين ، المعادين للنظام الاقطاعي، قد اصبحوا روح الثورة . ومثل هذا التوزيع للقوى ، كان شيئا مستحيلا في انكلترا او فرنسا . ان الصراع بين الطبقة العاملة والبورجوازية الالمانية

كان سيسجل حتما على جدول الاعمال، في النضال من اجل اعادة التجديد الديمقراطي البورجوازي للمجتمع الاقطاعي ، الفاء كل استثمار (أي الاشتراكية) . وكانت المانيا حبلى بثورة ديمقراطية بورجوازية . وابصرت الماركسية فيها النور لان مركز الحركة الثورية الاوروبية كان قد انتقل اليها .

اصدر ماركس وانجلس مؤلفا عبر عن الحاجات الملحة للحركة العمالية ونظمها في نظرية . وقد انتهى عهد تلمس الطريق . فبعد ذلك الوقت اصبحت البروليتاريا تملك نظرية عن الاشتراكية العلمية تظهر قوانين تطور المجتمع ، القوانين التي تسود ، موضوعيا ، وبالضرورة ، الانتقال الثوري من الراسمالية الى الاشتراكية . وقد اشارت هذه النظرية الى وسائل العمل الواجب استخدامها والى طريق التحرر .

تراث العقائد الاجتماعية للقرن التاسع عشر

ان النقاد البورجوازيين للماركسية يصورونها احيانا كثيرة بمثابة مجرد رفض لكل الحاصل المكتسب من القيم الفكرية والثقافية . وفي الواقع، نقرا في **الاسس الايديولوجية للشيوعية** ، بقلم هـ. فالك : « انالايديولوجية الشيوعية هي انكار متعمد للتراث الفلسفي الذي لا يقدر بثمن والذي كرس خلال الفي سنة من الحضارة (١) » .

---

(١) هـ . فالك ، **الاسس الايديولوجية للشيوعية** ، مونشن ١٩٦١ صفحة ٧ .

ولا حاجة للتعليق على هذا المقطع ، لان الصفحات التالية ستكذب المؤلف في نفس الوقت الذي ستحمل فيه كما نأمل ، براهين كافية على ان الماركسية لم تولد على هامش التقدم الانساني وان عظمة عبقرية ماركس وانجلس ، تتلخص بالدرجة الاولى بانها اعطت الجواب على الاسئلة التي سبق ان طرحها المفكرون التقدميون ، وان النظرية الماركسية تشكل امتدادا حيا ومباشرا لعمل اسطع ممثلي الفلسفة ، والاقتصاد السياسي والاشتراكية الطوباوية . فما هي اذن علاقات الماركسية مع المذاهب التي سبقتها ؟

الفلسفة الكلاسيكية الالمانية

حقق الفكر الفلسفي مع كانت ، وفيشته ، وشيلنغ ، وهيغل ، وفيورباخ ، في نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر عملا هائلا . وتشكل الفلسفة الكلاسيكية الالمانية احد مصادر الماركسية .

ان ما يعطي لهذه الفلسفة عظمتها هو مذهبة ديالكتيك المعرفة والديالكتيك بصورة عامة . ان هيغل ، رغبة منه في اثبات شمول العلاقات الديالكتيكية وقيمة هذا الاسلوب من التفكير باعتباره اسلوبا شاملا للبحث قد جعل منه علما ، الامر الذي يميز هذا الشكل الرفيع من الفلسفة ما قبل الماركسية ويميزه عن كل الاشكال السابقة. وفي الواقع ، ففي العصور القديمة وخلال النهضة، وفي بداية العصر الحديث لم يكن الديالكتيك نظرية

اي مجموعة مكونة من المفاهيم ، بل كان حقــلا ذا ملامح غير واضحة ، حيث كان يعثر على افكــار مشتتة ومسائل مطروحة ، وتخميــنات عبقريــة ، وتخيلات ساذجة للطابع التناقضي والعابر للاشياء ، كان الفضل يعود فيها في اكثر الاحيان الى المراقبة المباشرة للطبيعة . وقد قال لينين انه من المادية الغيبية (الميتافيزيكية) (الغريبة عن فكرة الحركة الشاملة) للقرن الثامن عشر، الى المادية الديالكتيكية فان الانتقال كان مستحيلا لو لا الفلسفة الكلاسيكية الالمانية . وكتب يقول : « ان ماركس لم يتوقف على مادية القرن الثامن عشر ، ودفع الفلسفة مســافة اكبر الى الامام . وقد اغنى مكتســبات الفلســفة الكلاسيكية الالمانية ، وخاصة مذهب هيغل ، الذي ادى بدوره الى ماديــة فيوربــاخ . ان المكتسب الرئيسي بين هذه المكتسبات هو الديالكتيكية ، اي نظرية التطور ، في اكمل جوانبــها ، واعمقــها ، واكثرها خلوا من التزمت ، نظرية نسبية معرفــة الانسان ، التي تعكس المادة التي هي في تطــور دائــم » (١)

ولا يمكن ان نفهم الديالكتيك حقا دون ان نأخذ بعين الاعتبار عصر الثورات البورجوازية وانهيــار المجتمع الاقطــاعي بنــظامه المتيبــس للعلاقــات الاجتماعية الذي دمرته الرأسمالية في مهلة قصيرة نسبــيا . وقد انشــأت فروعــا اقتصادية جديدة

---

(١) لينين — المؤلفات المختارة في ثلاثة مجلدات ، المجــلد الاول موسكو صفحة ٦٩ .

وطبقات اجتماعية جديدة ، واضفت اندفاعا شديدا على تقدم العلوم الطبيعية . وكان ذلك نهاية الايديولوجيات التي فات زمانها . ان الخنوع الذي نادت به الكنيسة قد ترك مكانه للتفاؤل المتبصر للعقل . وقد كتب هيغل يقول : « كل ما هو واقعي هو عقلاني ، وكل ما هو عقلاني هو واقعي » . وانطلاقا من شمول التطور والتغير، سعى لاكتشاف قوانين التقدم الانساني وامكانية اعادة التنظيم العقلانية للحياة الاجتماعية .

المثالية الديالكتيكية الهيغلية

من الفكرة الاساسية لفلسفة هيغل القائلة بان العالم هو في تطور دائم ، ومن ثقته المطلقة بالعقل البشري ، كان ينبغي الاستنتاج بان النضال ضد الظلم والشر الاجتماعي يرتبط بالقانون الشامل للتطور الدائم وانه بالتالي عقلاني وضروري . وفي كتاب **المنطق** ، مؤلفه الرئيسي ، ابرز هيغل العلاقات الديالكتيكية والتحولات المتبادلة للمفاهيم الفلسفية والعلمية ، كالكائن والعدم ، والكمية والنوعية ، والمتناهي واللامتناهي ، والجوهر والظاهرة ، والمطابقة والتباين ، والضرورة والاحتمال ، والحرية والضرورة ، والذاتية والموضوعية ، والمثل الاعلى والواقع ، والعام والخاص الخ . ومن غير ان يكتفي ببحث المفاهيم المتضادة ، ولكن التي تشكل وحدة ، بنى سلما للمفاهيم التي يمثل كل منها مرحلة اجتازها الفكر الذي يعرف ذاته ويتطور ، اي المبدأ الروحي للكون المتجسد في الطبيعة . وقد خرق

هيغل حدود المنطق الشكلي ، حيث المطابقة هي تجريدية دائما (« أ » تساوي « أ » ، والشجرة هي الشجرة الخ) في حين ان كل اقتراح مثل « الوردة هي زهرة » يخرجنا من اطار المطابقة البسيطة ويبين لنا وحدة المطابقة والتباين ، اي التناقض . وقد انتقد هيغل المنطق الشكلي بسبب تفسيره الضيق للتناقض (عدم توافق الاقتراحات التي ينفي احدها الآخر) ، فكتب يقول : « ان ما يحرك العالم بصورة عامة هو التناقض . ومن السخرية القول بانه لا يمكن تصور التناقض » (١)

ويقول هيغل بان التناقض ليس شيئا غير طبيعي ، وليس نقصا او عيبا ، بل هو العلاقة المتبادلة ، والتبعية المتبادلة للجوانب والاوصاف المتعارضة ، « مبدأ كل حركة عفوية » . فاذا كانت ظاهرة ما تنطوي على تناقضات فهذا يعني انها تتطور . وكتب هيغل « وبالتالي ، فان كل شيء قابل للحياة ، وذلك فقط بمقدار ما ينطوي على تناقض ويمثل قوة قادرة على صده وعلى تحمله » . (٢)

ان الديالكتيك الهيغلي الذي بني على تخمينات مثالية ، وبالتالي خاطئة ، هو مع ذلك نظرية للتطور النظرية الاكثر تكوينا وكمالا في عصرها . وكما

---

١ – ف. هيغل – **المنطق** – مجلد ٢ – باريس ١٨٥٩ ، صفحة ٩٦ .

(٢) ف. هيغل – المجلد الخامس ، صفحة ٥٢١ ، الطبعة الروسية

كتب ماركس ، « فبالرغم من ان هيغل ، بسبب خلطه بين الاشياء يشوه الديالكتيك بواسطة الفلسفة الباطنية فهو اول من عرض الحركة الشمولية مع ذلك . فعند هيغل يسير الديالكتيك على رأسه ، ويكفي ان يوضع على قدمية كي نجد ته مظهرا معقولا تماما » . (١)

وفي المذهب الهيغلي فان التطور هو تطور الفكر . وهذا التعبير لا يشير الى النشاط الروحي للانسان، بل الى المبدأ الروحي للطبيعة ، المبدأ الذي يتطور والذي يشكل الفكر الانساني في ارفع تجلياته ، ولكن ليس التجلي الوحيد . وخلافا لهيغل ، الذي تجاهل مذهبه تطور المادة والطبيعة ، فان ديالكتيك ماركس وانجلس هو علم للتطور الشامل ، علم القوانين العامة للطبيعة وللمجتمع والفكر الانساني. ان « وضع الديالكتيك على قدميه » كان يعني تحميله المحتوى الحقيقي الذي استمده مؤسسا الماركسية من العلوم الطبيعية والاقتصاد السياسي والتاريخ .

المادية الانتروبولوجية للودفيغ فيورباخ

انتهت الفترة الكلاسيكية للفلسفة الالمانية مع لودفيغ فيورباخ ، الذي خدمت ماديته ماركس وانجلس من اجل دعم انتقادهما للمثالية الديالكتيكية الهيغلية . وقد عارض فيورباخ مذهب

---

(١) ك. ماركس ، وف. انجلس ، المؤلفات المختارة بمجلدين المجلد الاول ، صفحة ٤٨٢ — ٤٨٣ .

هيغل بمادية انتروبولوجية تعتبر الفكر بمثابة قدرة للانسان ترتبط ارتباطا لا ينفصم بالصورة التي تحملها اليه الحواس عن الواقع المادي الخارجي وبمجمل الاحساسات والانفعالات التي يشعر بها . ان انسان فيورباخ الذي هو تتويج لاعمال الطبيعة ، يعيش في اتحاد معها . الا ان هذا الاتحاد وكذلك غنى وتنوع الوجود الفردي ، يفسران تفسيرا مستمدا من الفلسفة الطبيعية. ولدى التشديد على الجانب الاجتماعي للكائن الانساني ، فقد وضع فيورباخ قبله العشيرة والوحدة البيولوجية للنوع ، والحالة الجنسية ، وكل ما تتضمن من علاقات بين الرجل والمراة وبين الاهل واولادهم الخ . وقد سعى لابراز الفروق النوعية (الانتروبولوجية) التي توجد بين الانسان والحيوان ، حتى فيما هو مشترك بينهما (الاحاسيس والغريزة التكوينية) ولكن دون ان يتمكن ابدا من تقدير قيمة الديالكتيك الهيغلي ، ودون ان يفهم ابدا انه كان من الممكن ، ويجب تخليصه من شوائبه المثالية .

ان انتروبولوجية فيورباخ ، كانت تنطوي على بذور مفهوم مادي للوقائع الاجتماعية ، وبصورة خاصة عن الدين الذي يشكل انتقاده العنصر الاساسي لعمل هذا المفكر . وخلافا للماديين الفرنسيين في القرن الثامن عشر ، ودون الاكتفاء بتفسير بقاء الدين بالجهل والاكاذيب ، سعى الى ان يتلقف في المعتقدات انعكاسا لوجود الانسان وآلامه وتطلعه الى السعادة ، واحلامه وآماله . وقد كتب يقول « يؤمن الانسان بالالهة لانه يتمتع بالخيال

والشعور ولكن ايضا لانه يريد ان يكون سعيدا .
وهو يؤمن بالكائن السعيد لان لديه فكرة عن السعادة ، ولكن ايضا لانه يتطلع اليها هو نفسه .
وهو يؤمن بالكائن الكامل لانه يتطلع هو نفسه الى الكمال . ويؤمن بالكائن الخالد ، لانه يرفض الموت » . (١)

الا انه لم يستطع اختراق سر المناشىء الاجتماعية للدين ، التي هي مناشىء تاريخية ، اي يمكن تجاوزها . وحين بنى مذهبه الالحادي فهو قد رضخ مع ذلك لاغراء انشاء دين جديد ، دون إله . ان إلحاده غير كامل اذن .

ان فيورباخ الممثل البارز للمادية الالمانية ما قبل الماركسية ، هو واضع فلسفة تكمن اهميتها بالدرجة الاولى في انتقاد عميق للمذهب الهيغلي المذهب الاعظم مكانة من كل النظريات المثالية . وقد كان خطؤه الاساسي انه لم يفهم ديالكتيك هيغل .

ان عالم فيورباخ يحتوي على الوعد ، ولو انه وعد مبهم جدا ، بطرق جديدة للابحاث الفلسفية التي تطورت بعد ذلك على اساس اجتماعي مختلف بصورة جذرية . وهذا ما يفسر التأثير الذي مارسه (شأنه شأن فلسفة هيغل) على ماركس وانجلس في فترة نشوء مفهومهما عن العالم .

---

(١) فيورباخ ، المؤلفات الفلسفية المختارة ، مجلد ٢ ، موسكو ١٩٥٥ ، صفحة ٧١٣ ، الطبعة الروسية .

الاقتصاد السياسي الكلاسيكي الانكليزي

هناك مصدر آخر للنظرية الماركسيةهو الاقتصاد السياسي الانكليزي الذي دشن مع آدم سميث (١٧٢٣ – ١٧٨٠) ، ودافيد ريكاردو (١٧٧٢ – ١٨٢٣) في حدود القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، على النطاق العالمي ، مرحلة عظيمة من الابحاث في هذا المجال .

ان ما يعطي الاهمية التاريخية لنظرية سميث وريكاردو هو انها ، خلافا للنظريات السابقة ، لم تكن تعتبر الثروة الاساسية للمجتمع البورجوازي في ذلك العصر المعادن الثمينة المكدسة بفضل فرق اسعار البيع واسعار الشراء ، وبفضل التجارة الخارجية (مبدأ الربح المفرط في التجارة) ، ولم تكن تعتبر ايضا انها تأتيمن مجرد مضاعفة منتجات الزراعة وتربية الماشية ، (فيزيوقراطية) بل من العمل . وليس فقط من العمل الزراعي ، بل من العمل بصورة عامة .

وقد أرسى آدم سميث ودافيد ريكاردو أسس نظرية قيمة العمل التي تقول ، خلافا لما كان يعتقد من سبقوهما ، ان القيمة (وبالتالي الاسعار) لا يقررها العرض والطلب في السوق ، ولا تقررها كمية النقد المتداول ، ولا تقررها المنفعة الفعلية لهذه البضاعة او تلك ، بل فقط كمية العمل الضروري اجتماعيا الذي تنطوي عليه المنتجات .

ومن هذه الحقيقة ، مهما بدت بسيطة لاول وهلة،

كان ينبغي استخلاص استنتاج رئيسي ، وهو ان دور قوة العمل ، اي دور الشغيلة ، هو دور حاسم في انتاج الثروة الاجتماعية التي كان يستولي على القسم الاكبر منها اصحاب الرساميل ، في حين ان المنتجين كانوا يعيشون في بؤس . وفي كتابه **تاريخ المبادىء الاقتصادية** ، استشهد ماركس بمؤلف مجهول انتقد في عام ١٨٣٢ بالتعابير التالية الاقتصاديين الانكليزيين : « ان النظرية التي تجعل من العمل المصدر الوحيد للثروة هي خطرة بمقدار ما هي زائفة ، لانها تعطي نقطة ارتكاز الى اولئك الذين يدعون ان الملكية كلها تعود للطبقة العاملة التي تسرق الطبقات الحاكمة قسما منها » . (١)

وبالطبع ، فان النظريين الانكليز كانوا بعيدين هم انفسهم عن الرغبة في استخلاص مثل هذه الاستنتاجات . واقتناعا منهم بفضائل اسلوب الانتاج الراسمالي ، فهم لم يلاحظوا تناقضاته العميقة . وباعتقادهم ان قانون القيمة هو دليل على الطابع العقلاني والعادل للراسمالية ، النظام الذي يباع ويشترى فيه كل شيء بقيمته الحقيقية . ان روح الاقتصاد الكلاسيكي الانكليزي هي روح الراسمالية التي تريد ان تتوطد وتدوم ، والتي تعتبر علاقاتها الاجتماعية ونظامها الاقتصادي كاشياء كاملة ، طبيعية ، لا يفوت زمانها لانها تتفق والجوهر الانساني والعقل .

---

١ ـ ك. ماركس ـ تاريخ المبادىء الاقتصادية ، مجلد ٦ ـ باريس ١٩٤٧ ـ صفحة ١٠٠

وهذا الجهل للطابع التاريخي لاسلوب الانتاج قد منع نظريي الاقتصاد الكلاسيكي الانكليزي من الادراك العلمي لمناشيء الرأسمالية وتناقضاتها الداخلية ، وهي تناقضات تناحرية اعادتها الى ابعادها الحقيقية ، مرحلة من التاريخ . ومع ادراكهم ان الربح والريع والفوائد هي عناصر مكونة للقيمة ، فلم يكن بوسعهم اكتشاف منشأ القيمة الزائدة . فالكشف عن ذلك كان يعني طرح العلاقات الراسمالية على بساط البحث والكشف عن التناقضات والطابع الانتقالي لاسلوب الانتاج الموضوع من قبل البرجوازية ، وتبيان ان القيمة التي يخلقها العامل تتخطى كثيرا قيمة قوة العمل (الاجر) وانه بالتالي من أصل مجمل القيمة المنتجة، لا يدفع الرأسمالي سوى قيمة قوة العمل ويستولي على كل ما تبقى .

ويبدو كشيء غريب ان الاقتصاديين البورجوازيين المتعلقين جدا بالرأسمالية قد استطاعوا تأسيس نظرية سعى معاصروهم الاحدث سنا لاستخدامها من اجل مهاجمة المجتمع الرأسمالي ، الامر الذي ادى الى تلقيب ريكاردو دون وجه حق من قبل اخصامه ب « ابي الشيوعية » . وكل شيء يجد تفسيرا له مع ذلك اذا تذكرنا انه في ذلك الوقت فان التناقض بين البروليتاريا والبورجوازية، كان بالكاد قد ارتسم ، ولم تكن الطبقة العاملة بعد قوة اجتماعية تهدد الرأسمالية في وجودها ذاته . وعلى العكس ، فقد دعمت البورجوازية ضد الارستقراطية الاقطاعية . ان نظرية قيمة العمل

كانت تستهدف مباشرة الارستقراطية الاقطاعية لانها كانت موجهة الى اثبات ان كل قيمة وكل ثروة تأتي من الانتاج المنظم من قبل الرأسماليين ، وان ارستقراطية الارض التي تستهلك دون ان تنتج شيئا ، هي طبقة طفيلية .

وفي عهد كانت فيه التناقضات الطبقية بالكاد قد ارتسمت داخل المجتمع البورجوازي ، فقد كان الاقتصاد السياسي لا يزال قادرا على تكوين مفاهيم علمية . وبالتالي ، فنظرا لاشتداد النزاع بين البروليتاريا والبورجوازية ؛ فقد تحول الاقتصاد السياسي الى اقتصاد سمي بالاقتصاد المبتذل ، رفض نظرية القيمة ، وكرس نفسه للمدح المطلق للانتاج الرأسمالي الذي صوره بمثابة تعاون وانسجام بين الطبقات .

وقد سار تلاميذ ريكاردو شوطا ابعد ايضا بتبنيهم اولا مبدأ مالتوس اللاعلمي الذي أخفى الاسباب الحقيقية للبؤس مفسرا املاق الشغيلة بأزديادهم العددي ، وبافتقارهم للاعتدال ، ثم مبدأ جون باتيست ساي ، الاقتصادي الفرنسي التافه الذي قال بان عمل العامل لا يخلق سوى الاجر الذي يحصل عليه ، في حين ان ربح الرأسمالي والريع العقاري يخلقهما الرأسمال والارض . وفي هذه الحركة الرجعية ، فان الاقتصاد السياسي البورجوازي قد فقد بالضرورة عناصر المحتوى العلمي التي كانت لا تزال تظهر لدىنظريي الاقتصاد الكلاسيكي الانكليزي . ان وقائعجديدة دائما جاءت تحطم مبادىء الاقتصاديين التافهين حول انسجام

المصالح المزعوم بين العمل والراسمال ، وحول تطور المزاحمة الحرة باعتبارها مصدرا للازدهار العام .

ان سيموندي وبرودون اللذين كانا يمثلان قسم المجتمع المحكوم عليه بالخراب والتحول الى بروليتاريا من **قبل الراسمالية الصناعية** ، لدى انتقادهما النظريات البورجوازية قد فضحا التناقضات البارزة للتقدم الراسمالي . الا ان هذين الاقتصاديين البورجوازيين الصغيرين، غير القادرين على الارشاد الى وسائل التغلب على هذه التناقضات قد اعطيا صفة مثالية للماضي ، ونادیا بالعودة الى الاقتصاد البضاعي البدائي . ومن اجل تحطيم هذه الحلقة المفرغة ، كان ينبغي انتظار ظهور الاقتصاد العلمي لماركس وانجلس الذي سنشرح فيما بعد مبادئه الاساسية .

الاشتراكيــة الطوبــاوية

ان المصدر الثالث للماركسية هو الاشتراكية الطوباوية ، التعبير المشتق من ايطوبيا الشهيرة (البلاد الخيالية) لتوماس موروس ، (١٤٧٨ — ١٥٣٥) هذا المؤلف الذي نشره الفيلسوف الانكليزي الكبير في بداية القرن السادس عشر ، والذي ندد فيه بشراسة وتعسف الارستقراطيين . وقد عارض وقائع بلاده ، حيث كان الملاكون يطردون الفلاحين من اراضيهم ويدمرون بيوتهم لكي ينشئوا مزارع لتربية الخراف موجهة الى تموين معامل الجوخ التي كانت في اوج اتساعها ، عارضها بصورة مجتمع مثالي يجهل الملكية الخاصة،

والثروة والبؤس والبطالة والعمل المضني .

وفيما بعد ، رسم الفيلسوف الايطالي توماسو كامبانيلا (١٥٦٨ - ١٦٣٩) في كتابه **حاضرة الشمس** ، خطط مجتمع جيد التنظيم يقهر البؤس والجهل واللااخلاقية ويقوم على الملكية المشتركة . وبنفس الروح نظر الى المستقبل الاشتراكيون الطوباويون الفرنسيون مورلي ، مؤلف كتاب **شرائع الطبيعة** ، وجان مسلييه الذي ظهر كتابه **الوصية** بعد وفاته .

ولكن في القرن التاسع عشر ، انما بلغت الاشتراكية الطوباوية ذروتها في عمل كلود هنري دو سان سيمون ، (١٧٦٠ - ١٨٢٥) وشارل فوريه (١٧٧٢ - ١٨٣٧) والبريطاني روبرت اوين . ان الفضل الكبير لهؤلاء الفلاسفة هو انهم ارادوا ان يثبتوا امكانية وملاءمة الانتقال من النظام الرأسمالي الى تركيب اجتماعي يمكن ان تضمن فيه الملكية المشتركة والعمل الجماعي وفرة الخيرات المادية والتكوين الثقافي الكامل والمنسجم لكل فرد، ويمكن ان تزيل ليس فقط البؤس والاستثمار والجريمة ، بل ايضا التعارض بين العمل اليدوي والعمل الفكري ، وبين المدينة والريف . وعلى هذا النحو يصبح العمل حاجة ومصدرا للبهجة .

وهؤلاء المفكرون ، وهذا بالتحديد ما يميزهم عمن سبقوهم في القرنين السادس عشر والسابع عشر ، **كانوا يعيشون داخل راسمالية متطورة نوعا ما ، راسمالية تجلت تناقضاتها الداخلية . ومن** هنا ينبثق الجانب القوي لتعاليمهم ، ألا وهو انتقاد

الرأسمالية ، وهو انتقاد لاذع جدا لدى فورييه .

وقد كتب انجلس يقول: « انه يكشف دون شفقة عن البؤس المادي والمعنوي للعالم البورجوازي ، ويجابهه مع الوعود المغرية لفلاسفة الاضواء حول المجتمع الذي يجب ان يسوده العقل فقط ، حول الحضارة التي تأتي بالسعادة الشاملة » . (١)

وفي حقل النظرية ، فان الاشتراكية الطوباوية للقرن التاسع عشر كانت انعكاسات لخيبات امل ولدتها لدى الجماهير العواقب الاجتماعية للثورة البورجوازية الفرنسية لعام ١٧٨٩ . حرية ، مساواة ، اخاء : ان شعارات الثورة الجميلة هذه قد روجت في الواقع الوهم بانه يكفي القضاء على الاقطاعية وعلى الامتيازات واقامة الحريات الديمقراطية لكي يقوم الرخاء العام . وفي الواقع فان الرأسمالية لم تحمل الى الشغيلة حرية حقيقية ، بل شكلا جديدا من الاستثمار. فالمساواة التي وعدت بها الثورة كانت مساواة شكلية صرفا ، لانه لم يكن من الممكن ان تكون هناك مساواة بين المستثمرين والمستثمرين .. واما الاخاء فلم يكن في المجتمع البرجوازي سوى كاريكاتور لهذا المثال الذي اعلنه هو نفسه . وهذا الطلاق بين شعارات ونتائج الثورة البورجوازية الكبرى كان في منشأ الانتقاد الذي يعثر عليه في اعمال كبار الاشتراكيين

---

(١) ك. ماركس و ف. انجلس ــ المؤلفات المختارة بمجلدين، المجلد الثاني ، الاشتراكية الطوباوية والاشتراكية العلمية ، موسكو ــ صفحة ١٢٩ .

الطوباويين الذين كانوا يعبرون ، دون ان يدركوا ذلك ، عن مصالح الجماهير المستثمرة والمضطهدة من قبل الراسمالية ، وبالدرجة الاولى عن مصالح البروليتاريا ، التي كانت تنفصل تدريجيا عن مجمل الشغيلة الآخرين باعتبارها طبقة خاصة لاجراء محرومين من كل ملكية لوسائل الانتاج .

لقد كان سان سيمون وفورييه واوين طوباويين ، وذلك بالتحديد بسبب انهم لم يروا الوسائل الفعلية للتجديد الاشتراكي . فبعد ان رفضوا صراع الطبقات نادوا على العكس بتعاونها ونادوا ايضا بالتعليم والتربية بمثابة الوسائل الوحيدة التي يمكن تصورها من اجل الوصول الى الاشتراكية . وقد عملوا كي يكتسبوا الى جانب قضيتهم الراسماليين والطبقات المالكة بصورة عامة، ورغبة منهم في اعطاء المثال ، نظموا حاضرات اشتراكية . وقد كانوا بعيدين جدا عن فكرة ان الشغيلة هم الوحيدون الذين يستطيعون بناء الاشتراكية بالنضال ضد اعدائهم ، الطبقات المستثمرة. وكان الاشتراكيون الطوباويون يعتقدون بأنهم يستطيعون ان يقنعوا سواء المالكين او المحرومين بمزايا المجتمع الجديد. ان ما قرر الطابع الطوباوي لمبادئهم لم يكن وليد الصدف ، بل كان عائدا للسياق التاريخي: في فترة لم تكن قد تطورت فيها العلاقات الاجتماعية للراسمالية بدرجة كافية ، فلم يكن من الممكن اكتشاف الوسائل الفعلية لتحرير الشغيلة . ونقرأ لدى انجلس : « ان هذا الوضع التاريخي قد سيطر ايضا على مؤسسي الاشتراكية.

وقد كان الرد على عدم نضوج الانتاج الرأسمالي وعلى عدم نضوج وضع الطبقات ، عدم نضوج النظريات . فحل المسائل الاجتماعية الذي كان لا يزال مخفيا في العلاقات الاقتصادية ، التي كانت جنينية ، كان ينبغي ان ينبثق من الدماغ » (١)

ان الاشتراكيين الطوباويين الذين لعنوا الرأسمالية ونددوا بتناقضاتها ، وعلى الاقل التناقضات التي لاحظوها ، والذين انتقدوا الملكية الخاصة ، قد ناشدوا الملوك والبورجوازية (آل روتشيلد مثلا) بان يبدلوا نظاما لا يلائم البورجوازية ذاتها كما كانوا يقولون ، بالاشتراكية التي كانوا يعتقدون بانها ليست الخاتمة الحتمية والضرورية للتطور الاقتصادي للرأسمالية ، بل نتاج عبقريتهم .

ان ماركس وانجلس في تحليلهما الانتقادي لمبادىء سان سيمون وفورييه وأوين ، قد اكدا انه مع تطور الرأسمالية واحتدام التناقضات بين العمل والرأسمال ، فان نفي صراع الطبقات من قبل الطوباويين ، والنداءات الموجهة الى « عظماء هذا العالم » ، والدعوة الى الاصلاح وتضامن الطبقات كل ذلك كان يخدم الرجعية ، لانه كان يعرقل تقدم الحركة العمالية ويخمد الوعي الطبقي للبروليتاريا . وفي الواقع ، فحوالي الاربعينات من القرن الماضي ، تفسخت تعاليم كبار الطوباويين وتجزات الى شيع بائسة

---

١ ــ ف. انجلس ــ ضد دوهرنغ ، المنشورات الاجتماعية ــ باريس صفحة ٢٩٧ .

تعارض بابحاثها التجريدية الواسعة ، العمل الثوري للجماهير العمالية .

ان ماركس وانجلس مع تقييمهما للافكار الخصبة التي اطلقها الاشتراكيون الطوباويون في انتقادهم للراسمالية ، ومع استحسانهما لتخميناتهم العبقرية، قد ادانا الضعف النظري للمفاهيم التي كانت لدى هؤلاء المفكرين عن الانتقال الى الاشتراكية ، وادانا الروح الانعزالية التي كانت تبعدهم عن الحركة البروليتارية ، ورغبتهم بالوصول الى تسوية مع الطبقات المسيطرة . ولدى وضع العناصر العقلانية للاشتراكية الطوباوية ، وبتحقيق تركيب نظري للتاريخ، وضعمؤسسا الماركسية مبادىء الاشتراكية على اساس علمي ، اساس المادية . وقد حولا الاشتراكية من طوباوية الى علم .

التقدم العلمي

ان نهوض الصناعة الكبرى والانتاج الراسمالي بصورة عامة قد عجل بصورة فريدة تقدم العلوم الطبيعية الذي حفز التصنيع ، ولكنه اثبت ايضا خطأ المفاهيم التبسيطية المفرطة ، الساذجة والمعادية للعلم ، التي كانت تسود النفوس منذ عصور ، والتي يمكن تلخيصها بالكلمات التالية : لم يتغير العالم منذ وجوده ولا شيء يتغير فيالطبيعة او يولد منجديد. وفيالنصف الاول للقرن التاسع عشر، وجهت ضربة صاعقة لهذه المفاهيم من قبل قانون تحول الطاقة والنظرية الخلوية والداروينية ، ومكتشفات العلوم الطبيعية الكبرى الاخرى .

ومنذ القرن الثامن عشر ، اعلن ميخائيل لومونوسوف ، (١٧١١ ــ ١٧٦٥) ثم انطوان ــ لوران دي لا فوازيه (١٧٤٣ ــ ١٧٩٤) قانون بقاء الكتلة والحركة. الا انه في ذلك الزمن، فان الحركة الميكانيكية هي وحدها التي كانت موضع دراسات ، لان العلوم كانت تجهل الاشكال الاخرى لحركة المادة ، وكانت تعتبر الحرارة والكهرباء والنور والظاهرات الفيزيائية والكيميائية الاخرى ، بانها كلها تجليات لمواد « عادمة الوزن » ، وقد اقتضى الامر انتظار القرن التاسع عشر لكي يتمكن الباحثون العاملون في دراسة اشكال الحركة المختلفة نوعيا ، من طرح مسألة علاقاتها المتبادلة .

وفي بداية الاربعينات اعلن الطبيب الالماني ر. ماير ، (١٨١٤ ــ ١٨٧٨) قانون بقاء وتحول الطاقة الذي يقول انه بالانتقال من شكل (القوة الميكانيكية والحرارة الخ) الى شكل آخر ، فان كمية معينة من الحركة تتحول الى كمية معادلة. وفيما بعد، اخضع هذا القانون لدراسة نظرية واختبارية من قبل هيلمهولتز (١٨٢١ ــ ١٨٩٤) وفاراداي (١٧٩١ ــ ١٨٦٧) . وقد حسب جول ولنز المعادل الميكانيكي للحرارة ، اي كمية الطاقة الميكانيكية التي تقدمها وحدة الطاقة الحرارية. وقد دمرت نظرية « عادمات الوزن » ، وامكنت المعاينة ان حركة المادة لا تخلق ابدا او تباد، لكنها تجري على نحو غير منقطع باشكال مختلفة . بل وفضلا عن ذلك اكتشف بان الحركة لا يمكن قصرها على مجرد انتقال للاجسام في الفضاء، وان الحركة والتغير هما مرادفان . وقد اثبتت ذلك

العلوم الطبيعية ! ان التحولات المتبادلة لاشكال الحركة تشكل التغيرات النوعية . الم يؤكد الفلاسفة الماديون في العصور القديمة ان الحركة لا تضاف ابدا من خارج المادة ، بل هي نوعيتها الاولى ، وهو مبدأ تلقفه وطوره في العصر الحديث الماديون الفرنسيون للقرن الثامن عشر ، وبفضل اكتشاف قانون بقاء وتحول الطاقة ، اصبح من الممكن وضع مفهوم ملائم لوحدة المادة والحركة، والروابط الدياليكتيكية المتبادلة، والتبعيات المتبادلة لكل العمليات ، وهو مفهوم علمي وفلسفي ، امكن التحقق منه بالتجربة . صحيح ان الباحثين انفسهم لم يستطيعوا استخلاص هذه النتيجة الفلسفية الكبرى، الامر الذي حققه ماركس وانجلس لدى وضعهما لمفهومهما المادي والدياليكتيكي عن العالم .

وهناك اكتشاف آخر قلب العلوم ، هو اكتشاف الخلية ، او بالاحرى التراكيب الخلوية للمادة الحية، وهو اكتشاف دشن المرحلة التي ادت بصورة مباشرة الى ولادة مفهومهما . وبالرغم من انه منذ القرن السابع عشر ، لوحظت خلايا منعزلة ، ومجموعات من الخلايا بشكل متفرق خلال الدراسة المجهرية للنسج الحية ، ففي القرن التاسع عشر فقط انما جرى الاهتمام بتحديد الدور الفيزيولوجي لهذه العناصر ، واثبات ان كل الكائنات الحية ، سواء الحيوانات او النباتات ، تتألف من خلايا وتتطور وفقا لعمليات تكونها .

وقد اكدت النظرية التي صاغها في ١٨٣٨—١٨٣٩ البيولوجي الالماني شليدن ، (١٨٠٤ — ١٨٨١)

والبيولوجي الالماني شوان (١٨١٠ ـ ١٨٨٢) ان الخلية هي العنصر المكون لكل جهاز عضوي حيواني. ان فضل شوان هو انه قد اثبت بصورة خاصة ان الخلايا الحيوانية والنباتية المختلفة تملك تراكيب متشابهة تقريباوتؤدي كلها نفس الوظيفة الفيزيولوجية. ان ولادة وتطور كل جهاز عضوي يتحققان بتكون وتكاثر الخلايا ، وهي عملية تسود الوظائف العضوية لكل كائن حي . وبالتالي ، فان النظرية الخلوية قد اتت ببراهين ساطعة عن واقع ان العلاقات المتبادلة والروابط العميقة توحد المادة الحية ، وكان ذلك دليلا غير مباشر على المناشىء المشتركة لكل الاجهزة العضوية .

ولكن لم يستطع اي من هذين الباحثين الالمانيين ان يستخلص من اكتشافاته الاستنتاجات اللازمة. وقد رفض شليدن ذلك ، لانه كان يعتقد بان طبيعة الاشياء لا يمكن ان يدركها العقل الانساني . اما شوان ، الكاثوليكي المتحمس فقد اكد من جانبه ان النظرية الخلوية لا تنطبق على الانسان الذي خلقه الله كما جاء في الكتب .

ان ماركس وانجلس ، بعد ان استخلصا النتائج الفلسفية للنظرية الخلوية ، فقد ذكرا بصورة خاصة انها تمكن من استشفاف المناشىء التاريخية للتنوع اللامتناهي لاشكال الحياة ، الامر الذي اكدته نظرية داروين (١٨٠٩ ـ ١٨٨٢) حول اصل الانواع .

وكان ذلك الاكتشاف الثالث من الاكتشافات الكبرى التي هيأت المادية الديالكتيكية. وقد وضعت تحولية داروين نهاية للمفاهيم القائلة بان الانواع

الحيوانية والنباتية منعزلة وثابتة، وغريبة عن بعضها البعض، وخاضعة لمشيئة إلهية، او لتأثير الصدفة. ولاول مرة في التاريخ، نقلت البيولوجيا الى صعيد علمي، صعيد قابلية الانواع للتحول والاستمرار.

ومن المعلوم انه قبل داروين بكثير، فان علماء طبيعيين وفلاسفة قد روجوا افكار التطور. وقد افترض ديدرو بان اصغر دودة يمكن ان تتحول الى حيوان كبير بواسطة التغيرات المقسطة على الوف السنين. الا انه لم يكن هناك شيء يثبت آراءه التخيلية.

ان فضل داروين هو انه اعلن نظرية علمية للاصطفاء الطبيعي التلقائي للانواع (بالتشابه مع الاصطفاء الاصطناعي الذي يمارسه الانسان)، او نظرية الصراع في سبيل البقاء، الصراع الذي تتوفر حظوظ البقاء فيه فقط للافراد الافضل تكيفا، الامر الذي يتيح تفسير الفروق ذات الصفات النوعية، وهي فروق ضعيفة نسبيا توجد بين الانواع، ومثلا بين الحصان والحمار، والبنفسجة واللاتنسني، وكذلك التكيف النسبي للاجهزة العضوية مع بيئتها. ان داروين الذي رفض كل التفسيرات الباطنية قد اثبت بان هذا التكيف يعود لتطور الكائنات الحية. ولدى تحقيق التركيب النظري لمشاهداته التي لا تحصى، اكتشف القوانين التي تسوس تطور الانواع. وهو لم يكن يفكر بانه يعد بذلك، في حقل العلوم الطبيعية، عنصرا اساسيا للمادية الديالكتيكية.

هذه هي المقدمات التي جعلت ولادة الماركسية

وفلسفتها شيئا ضروريا تاريخيا : المادية الدياليكتيكية والمادية التاريخية . انهما تعودان في آن واحد الى حقلي الاجتماع والاقتصاد ، وحقلي النظرية الصرف والعلوم الطبيعية .

الفصل الثاني

النشوء

نشأت الفلسفة الماركسية خلال العقد الواقع بين اواخر الثلاثينات واواخر الاربعينات من القرن الماضي .

ان ماركس وانجلس قد انحدرا كلاهما من **البورجوازية . وقد ولد كارل ماركس في تريف في** رينانيا ، في ٥ ايار ١٨١٨ في عائلة محام مشهور كان يوافق على الافكار المتقدمة لعصره ، افكار **الديمقراطية البورجوازية.** وكان يحلم ان يجعل من ابنه موظفا .

وكان فريدريك انجلس هو ايضا من هذهالمقاطعة الاكثر تطورا من وجهة نظر الانتاج الرأسمالي. وقد ولد في ٢٨ تشرين الثاني ١٨٢٠ في عائلة صناعي كبير . ان الشاب انجلس الذي كان موجها كي يعمل في التجارة والذي اضطر للعمل في مكتب ابيه ، فد درس مع ذلك ، بمواظبة ، الفلسفة والتاريخ والعلوم الطبيعية .

وبالطبع ، فلكي يتمكنا من خلق النظرية

العلمية للطبقة العاملة ، كان على ماركس وانجلس أن يقطعا صلتهما أولا بالايديولوجية البورجوازية التي جرى السعي لتلقينهما اياها في بيئتهما الاصلية ، العائلة والمدرسة . وقد اقتضى الامر أيضا ، وعلى الاخص ، أجراء بحث انتقادي للعقائد الفلسفية والاقتصادية والاشتراكية الكبرى واعادة النظر فيها من زاوية جديدة والقيام بتركيب الوقائع الاقتصادية والاجتماعية والسياسية الحديثة ، أي الاعمال الثورية للطبقة العاملة وازمات فائض الانتاج الخ .

ان العملية التاريخية لنشوء الماركسية تنقسم الى مرحلتين أساسيتين : أولا انتقال ماركس وانجلس من المثالية الى المادية الديالكتيكية ، ومن الديمقراطية الثورية الى الشيوعية العلمية . وثانيا ، نشوء مجموعة من المبادىء (المادية الديالكتيكية والتاريخية ، والشيوعية العلمية) انتهت بظهور مؤلفات النضوج الاولى ، وهي **بؤس الفلسفة والبيان الشيوعي** .

ان المعركة التي خاضها ماركس وانجلس دفاعا عن مصالح « الفئات الدنيا » ضد أولئك الذين كانوا يدافعون صراحة ، أو بأشكال مستترة ، عن الاضطهاد وعن استثمار الانسان للانسان ، تشكل نابض هذه العملية الغنية جدا والمعقدة جدا .

من المثالية الى المادية الديالكتيكية
ومن الديمقراطية الثورية الى الشيوعية العلمية

تباين فلسفتي الطبيعة عند ديموكريتس

وأبيكور . هذا هو عنوان المؤلف الاول للشاب ماركس ، أطروحته للدكتوراه التي دافع عنها في عام ١٨٤١ . وكان لا يزال يظهر فيها مثاليا هيغليا يرى أن التقدم في معرفة الذات يشكل أساس وجوهر التاريخ . الا أن اختيار الموضوع بحد ذاته قد كشف عن بعض الاختلافات في الرأي . فخلافا لهيغل ، الذي كان ينظر من فوق الى ماديي العصور اليونانية القديمة ، الى أولئك « الفلاسفة ، فلاسفة الوعي العادي » أعطى ماركس التفضيل للعقائد المادية . ومن جهة أخرى ، فحول بعض النقاط ابتعدت اطروحته عن المثالية ، وذلك مثلا حين اثنى على ابيكور وعلى مدرسته لانهما كافحا الدين والخوف من المجهول ، ومن الوهمي ، ما فوق الطبيعي .

ان هذا المؤلف الهام لماركس كان مفعما بالاحتجاج السياسي ضد واقع اجتماعي يستعبد الفرد . وهذا الواقع الذي كان اكثر بشاعة في المانيا شبه الاقطاعية ، مما في أي مكان اخر ، قد عارضه ماركس بفلسفة تحدت كل آلهة السماء والارض باسم الحضارة وتحرير الانسان .

وهذه الطريقة في تصور علة وجود ورسالة الفلسفة ، كانت غريبة بصورة عميقة عن هيغل وغيره من المفكرين المثاليين الذين كانوا يعتبرون العالم عقلانيا في الاصل . وبرأيهم ، فان الفلسفة تستحق كل المدائح باعتبارها أرفع من كل مطمح ، ومن المصالح والاهتمامات المبتذلة ، ومن البحر الذي لا

يمكن سبره ، البحر الهائج للمشاعر الانسانية .
وضد هذا التقليد البالغ القدم ، والعزيز جدا على الناس المتعلقين بالسلطة ، انما ارتفع صوت ماركس الشاب معلنا « فلسفة العمل » هذا الشكل الروحي العظيم المدعو الى ارواء تعطش الانسان الى المعرفة ولكن أيضا الى القيام بتجديد عقلاني للعالم .

وهكذا ، فان الفلسفة تصبح انتقاد العلاقات الاجتماعية : « تندمج الفلسفة في العالم بمقدار ما يصبح العالم فلسفيا » (١) .

وقد عرض على ماركس منصب استاذ في جامعة بون فرفضه وانضم الى الحركة السياسية . وفي عام ١٨٤٢ أصبح محرر صحيفة « راينيشر تزايتونغ » (صحيفة الراين) وهي صحيفة ليبرالية أصبحت بادارته صحيفة ديمقراطية ثورية . ويعتبر ماركس هذا الدخول الى الصحافة والنشاطات السياسية بمثابة مرحلة منطقية وضرورية في التقريب الذي ينبغي اجراؤه بين الفلسفة والواقع . وكتب يقول بأن الفلسفة لا ينبغي أن تحلق فوق العالم ، ولا ينبغي أن تظل « مجرد نظرة للفكر » . فهي تحتاج بصورة مطلقة الى تغيير قفطانها ، رمز الزهد والكهنوتية ، وان ترتدي الملابس الخفيفة والحديثة ، ملابس الصحف . وهي حين تصبح « محررة » وترسخ قدميها في الحياة اليومية ،

---

(١) ك. ماركس و ف. انجلس ، المؤلفات الاولى ، موسكو ١٩٥٦ ، صفحة ٧٨ ، الطبعة الروسية .

وسط صيحات أعدائها ، تتغير ليس فقط من حيث الشكل ، بل أيضا من حيث الجوهر : انها تعرف ان تختار من بين المسائل العملية الراهنة ، أكثرها الحاحا كي تسجلها على جدول الاعمال . ومنذ البداية يظهر لنا ماركس في مقالاته الفلسفية في صحيفة « راينيشر تزايتونغ » ، كمدافع متحمس عن المصالح السياسية والاقتصادية للشغيلة . وقد انتقد مشروع قانون بربري حول قمع سرقات حطب التدفئة ، لانه يستهدف الفلاحين الذين يجمعون الحطب في الاحراش وقد القى الضوء على الطبيعة الطبقية لهذا المشروع . وتولى الدفاع عن كرامي الموزيل المنهوبين من قبل النبلاء البروسيين ، وشن حملة لمصلحة حرية الصحافة ، وطالب بالغاء الرقابة .

وهذا العمل أبعد الشاب ماركس أكثر فأكثر عن المثالية . ومنذ ١٨٤٢ ، فان مقالات « راينيشر تزايتونغ » تشهد على بداية « نزوح » ، قاده الى المادية والى الشيوعية . ان ماركس الذي ندد بالدولة البروسية لانها تدافع عن مصالح النبلاء، قد تخلى عن المفهوم الهيغلي القائل بان الدولة والقانون بصورة عامة يماثلان بالاخلاق والحرية . وبالنسبة له ، فان الدولة تستطيع أن « تجسد » الحرية والاخلاق ، وذلك فقط بشرط تمثيل مصالح الجماهير الشعبية، وليس مصالح بعض المستغلين . ان ماركس ، مع بقائه في ذلك الوقت أسيرا لنظرية مثالية عن الدولة ، قد اتجه نحو المادية ، كما يثبت

انتقاده للدولة البروسية التي يسيطر عليها النبلاء والموضوعة في خدمة اقلية مالكة على حساب الاكثرية المحرومة . والى تلك الفترة يعود تاريخ فكرة ماركس التالية : صحيح انه يمكن معارضة الافكار الشيوعية بالمدافع ، ولكن لا يمكن خنقها . وذكر ماركس انه بمقدار ما تتطور الصناعة الكبرى ، تصبح الشيوعية مسألة اوروبية ولا يمكن تجاهلها بسبب ان ثيابها ليست شديدة البياض وليست معطرة .

وفي ربيع ١٨٤٣ ، اغلقت الحكومة البروسية الصحيفة لقيامها بالدعاية الثورية . وقد كان مؤلما جدا بالنسبة لماركس ان يعمل في الجو المسموم والخانق لنظام رجعي على استعداد دائما لقمع اقل ميل للبحث المستقل ، الى حد انه سافر في خريف ١٨٤٣ الى باريس حيث تولى مع روج (١٨٠٢ - ١٨٨٠) اصدار **الحوليات الفرنسية - الالمانية** . ان الرجلين اللذين افلتا من القيود المفروضة من قبل الرقابة البروسية قد تمتعا اخيرا بحرية نسبية كي يشرحا مفاهيمها النظرية . واشترك ماركس في العاصمة الفرنسية بنصيب فعال في النضالات السياسية ، ودرس الحركة العمالية والاشتراكية الطوباوية الفرنسية والانكليزية وتاريخ ثورة ١٧٨٩ ، وفلسفة الاضواء وما سبقها .

وفي باريس انما ابرز عيوب مبدأ فيورباخ مع ثنائه عليه ، لانه اتخذ موقفا ضد الدين والفلسفة التخيلية . وخلافا لفيورباخ ، الذي كان يعتبر

الدين بمثابة مجرد انعكاس للجوهر البشري الثابت ، لم يكتف ماركس بالاحاطة بالمحتوى الارضي للمعتقدات بل اكتشف فيها صورة علاقات « مفشوشة » بين الناس ، متناولا على هذا النحو مسألة العلاقات بين الوجدان الديني من جهة والاضطهاد وأستثمار الانسان للانسان من جهة أخرى .

وقد عمق انتقاده اذ كتب يقول : « ان حكم فيورباخ لا يمكن أن ترضيني ، وذلك على الاقل بسبب انه يصر كثيراً على الطبيعة ، وقليلا جدا على السياسة ، في حين ان تحالفهما هو وحده الذي يمكن ان يجعل من الفلسفة المعاصرة حقيقة(١) .

وحين أعد أصدار **الحوليات** وحدد اتجاهها ، عارض كل تفسير متحجر لدور النظرية الاجتماعية والفلسفة . وخلافا للرأي القائل بان الفلسفة هي « علم المطلق » الذي عورضت به في أكثر الاحيان الممارسة العملية والنضال ، رأى ماركس رسالة الفلسفة والنظرية الاجتماعية في « انتقاد دون هوادة للنظام القائم ، انتقاد دون هوادة من وجهة نظر مزدوجة علما بأن هذا الانتقاد لا ينبغي أن يخشى الاستنتاجات التي يسمح هو نفسه باستخلاصها، ولا أن يتراجع أمام النزاع مع « عظماء

---

(١) كارل ماركس وفريدريك انجلس ، المؤلفات الاولى ، موسكو ١٩٥٦ ، صفحة ٢٥٧ (الطبعة الروسية) .

هذا العالم »(١) .

وأعلن ماركس نفي الفلسفة **بالمفهوم القديم** للكلمة ، وضرورة تخطي التعارض بين الفلسفة التي اعتبرت خلال العهود التاريخية السابقة بمثابة « مرجع أعلى » والعلوم المسماة بالعلوم الايجابية .

وفي الواقع ، ففي حين ان الفلسفة السابقة كانت تعتقد أحيانا كثيرة بان رسالتها هي تهدئة المشاعر ، والهاء الناس عن النضال كي تغرقهم في تأمل هادىء وعميق ، عهد اليها ماركس بمهمة متعارضة تماما فكتب يقول : « وهكذا ، فليس هناك أي شيء يمنعنا من ربط انتقادنا بانتقاد السياسة ، وبموقف حزبي محدد في السياسة ، وبالتالي ، بربط وقرن انتقادنا بالنضال الفعلي . وفي هذه الحالة ، فلن نظهر أمام العالم كمجرد نظريين ، يأتون بمبدأ جديد جاهز : هذه هي الحقيقة وهنا ينبغي الركوع (٢) واضاف : ان مهمة العلوم الاجتماعية ، والفلسفة بصورة خاصة تتلخص في دراسة وفي « تأمل » التجربة التاريخية ، تجربة النضالات التي خاضتها الطبقات المضطهدة والمستثمرة في سبيل تحررها الاجتماعي . وعلى ضوء هذه التجربة انما ينبغي استخلاص القوانين الحقيقية للتقدم الاجتماعي ، بدلا من اختراع شتى أنواع الوصفات والادوية الشافية من جميع الاوجاع

---

(١) ك. ماركس و ف. انجلس ، المؤلفات ، المجلد الاول ، صفحة ٣٧٩ ، (الطبعة الروسية) .

(٢) نفس المرجع ، صفحة ٣٨١ .

كما فعل مثاليون انسانيون عديدون والطوباويون من مختلف الاتجاهات ، باحثين في دماغهم عن حل لمسائل المجتمع . لقد وضع ماركس الفلسفة في خدمة العمل الثوري لتجديد المجتمع .

الحوليات الفرنسية ـ الالمانية
(١٨٤٤)

ان المجموعتين الاوليين من الحوليات الفرنسية ـ الالمانية اللتين صدرتا في ١٨٤٤ ، كانتا حدثا بارزا . ان ما يقرر الاهمية التاريخية للدراسات المنشورة في هذه المجموعة ، وهي **مساهمة في انتقاد فلسفة الحق عند هيغل** و**المسألة اليهودية** لماركس **ومساهمة في انتقاد الاقتصاد السياسي** و**وضع انكلترا** لانجلس، هو الارتسام بشكلها النهائي، للمرحلة التي قادت المؤلفين من المثالية الى المادية الديالكتيكية ، ومن الديمقراطية الثورية الى الشيوعية العلمية . وفي هذه المقالات ، انما حدد مؤسسا الماركسية لاول مرة الدور التاريخي والعالمي للبروليتاريا ، وحددا نقاط انطلاق فلسفتهما ونظريتهما عن الشيوعية .

وقد كتب ماركس في **مساهمة في انتقاد فلسفة الحق عند هيغل** ان مجرد تحويل نوعي بانتقاد نظري للعلاقات الاجتماعية البالية ، لا يكفي ابدا لتحويل المجتمع . وفي آخر تحليل ، فان القوة المادية ، اي الثورة ، هي التي تشكل العامل الحاسم والقاطع لكل تحويل جذري ، وليس الانتقاد

النظري ، الفلسفة او النظرية بصورة عامة . ومن غير ان يرغب في الاقلال من شأن النظرية ، اكد انه في ظروف ملائمة ، فان النظرية من شأنها ان تصبح هي ايضا قوة مادية ، اداة اتحاد وتنظيم الجماهير .

« من الجلي ان سلاح النقد لا يمكن أن يحل محل نقد السلاح . فالقوة المادية لا يمكن انقضاء عليها الا بالقوة المادية . لكن النظرية تتحول هي ايضا الى قوة مادية حالما تتوغل في الجماهير » . (١)

ان البروليتاريا هي وحدها التي تظهر كقوة مادية قادرة على تدمير العلاقات الراسمالية وتحقيق الانعتاق النهائي للانسان ، لانها من حيث وضعها ذاته داخل المجتمع البورجوازي ، فهي في آن واحد النتاج والنفي لهذا المجتمع . ولكي تتمكن من تحقيق هذه الرسالة التاريخية الكبرى ، فهي تحتاج الى فلسفة تقوم على مبادىء جديدة ، فلسفة ثورية حقا تتيح لها ان تتوغل بعمق في الواقع المحيط . وكتب ماركس يقول « وكما ان الفلسفة تجد في البروليتاريا اسلحتها المادية ، فان البروليتاريا تجد في الفلسفة اسلحتها الفكرية » (٢) . ومما لا بد منه اذن خلق فلسفة بروليتارية تختلف تماما عن كل المذاهب

---

(١) ك. ماركس ــ المؤلفات الكاملة ، المؤلفات الفلسفية ، المجلد الاول باريس ، ١٩٢٧ صفحة ٩٦ .

(٢) ك. ماركس ، المؤلفات الكاملة ، المؤلفات الفلسفية ، مجلد ١ باريس ١٩٢٧ صفحة ١٠٧ .

السابقة التي لم تكن ابدا ؛ ولم يكن من الممكن ان تكون السلاح الروحي للجماهير الثورية .

وفي مقاله **المسألة اليهودية** ، بدد ماركس الاوهام « الليبرالية » القائلة بان التحرر السياسي (اي التحولات الديمقراطية البورجوازية) تكفي للتحرر الحقيقي للانسان . ولدى الاشارة الى الدور التقدمي لهذا التحرر ، اعتبره مع ذلك بمثابة تحرر جزئي ، غير كاف ، لانه لم يدمر سيطرة الملكية الخاصة التي هي في منشأ الظلم الاجتماعي والاستثمار والاضطهاد وعارضه ب«التحررالانساني»، الثورة الاشتراكية المدعوة لوضع حد للملكية الخاصة وللاضطهاد ولاستثمار الانسان للانسان بأي شكل كان .

وهذه الافكار قد طورت في **مخطوطات ١٨٤٤** ، وهو مؤلف لم ينجز ، وصف فيه ماركس ، دون ان يسمي نفسه شيوعيا بعد ، نظريته ب « النزعة الانسانية الحقة »، معارضا النزعة الانسانية المبهمة للبورجوازية . ومن حيث الاساس ، فان النطاق الضيق لانتروبولوجية فيورباخ ، قد فات زمانه ، بالرغم من ان التعابير وبعض المقاطع لا تزال تحتفظ بطابعه . ان الدور الحاسم للعمل والنشاط المنتج في صيرورة وتطور الانسانية ، يشكل الموضوع الرئيسي **للمخطوطات** . لقد خلق العمل الانسان ، وهو يسوس تطوره . الا انه بسبب طابعه البدائي في بعض مراحل التاريخ ، يأخذ من الانسان كل قواه وكل وقته ، وهو يستعبده بالتالي . انه « العمل المفراغ » . وفي اللغة المستعملة من قبل ماركس

في ذلك العهد ، فان هذا التعبير يعني النشاط الذي يجب ان يقوم به الانسان حتما لكي يعيش ، لكنه نشاط يجعله عاجزا عن ان يطور بصورة منسجمة كفاءاته ، وان يلبي حاجاته . ان التقدم الاجتماعي ، ونهوض الانتاج ، يخلقان ثانويا ، وبالضرورة ، ظروفا ملائمة للقضاء على هذا الافراغ للذات بمعنى انهما يتيحان التغلب على التناقض الذي يجعل العمل والمتعة ، العمل وتفتح الشخص الانساني ، شيئين لا يتفقان . وبعد ازالة افراغ الذات في حقل الانتاج ، فانه يتوارى ايضا من الحياة السياسية والفكرية للمجتمع ، وتتوارى معه الملكية الخاصة والظلم الاجتماعي والاستثمار والاضطهاد الخ . ومثل هذا التحول للعلاقات الاجتماعية ، هو تحول شيوعي من حيث جوهره ذاته .

وفي ايامنا هذه ، فان نقاد الماركسية يزعمون ، بالرجوع الى **المخطوطات** ، ان النظرية الشيوعية تقوم على النتائج التي يدعون بان ماركس استخلصها حين حلل بشكل تخيلي المفاهيم « الفلسفية » للافراغ وافراغ الذات المقتبسة من هيغل وفيورباخ . وفي الواقع ، فان ماركس الذي اختار كنقطة انطلاق الوقائع الاقتصادية الواقعية مستبعدا كل مفهوم تجريدي ، قد حمل تعبير الافراغ محتوى نوعيا جديدا ، ككل المفاهيم الاخرى للفلسفة القديمة ، التي نجدها ايضا في هذا المؤلف .

من المثالية الى المادية الديالكتيكية ، ومن

الديمقراطية الثورية الى الشيوعية العلمية ، سار انجلس في نفس الطريق . ويظهر لنا انجلس نصيرا صلبا للديمقراطيين الثوريين ، وعدوا لدودا للملكية البروسية ، منذ ١٨٣٩ ــ ١٨٤٠ ، في رسائله الى الاخوان غرايبر ، رفاقه في المدرسة « انني اشعر تجاهه ، (ملك بروسيا ــ ملاحظة للكاتب) بكره عنيف الى درجة انه يكاد لا يوجد رجلان او ثلاثة رجال استطيع ان امقتهم بهذه الدرجة . انني امقته مقتا شديدا الى اقصى حد ، وسيكون مقتا اكبر ايضا لو لم اكن احتقر كثيرا هذا الوغد ... انني لا اتوقع اي شيء حسن من قبل الملك ، الا في اللحظات التي يطن فيها رأسه من الصفعات التي تتساقط عليه من قبل الشعب ، وحين تحطم الثورة زجاج قصره » . (١)

وفي نهاية ١٨٤٢ سافر انجلس الى انكلترا واقام في مانشستر ، حيث عمل في معمل لغزل القطن كان والده شريكا في ملكيته . وفيما بعد كتب يقول: « في مانشستر أدركت باجلى شكل بان الوقائع الاقتصادية التي لم يعطها المؤرخون حتى ايامنا سوى دور ثانوي ، هذا حين يعطونها دورا ما ، تشكل ، على الاقل في العالم الحديث قوة تاريخية حاسمة ، وتشكل الاساس الذي تقوم عليه التناقضات الطبقية الراهنة ، وان هذه التناقضات الطبقية في البلدان التي ساعدت فيها الصناعة

---

١ ــ ك. ماركس . و ف. انجلس المؤلفات الاولى ، موسكو ١٩٥٦ ، صفحة ٣٣٧ (الطبعة الروسية) .

الكبرى الازدهار التام ، وخاصة في انكلترا ، تشكل بدورها اساس نشوء الاحزاب السياسية والنضالات الحزبية ، وبالتالي ، كل التاريخ السياسي » . (١)

وانصرف انجلس الى دراسة الاقتصاد السياسي . وحتى قبل لقائه مع ماركس كان قد كتب **مساهمة في انتقاد الاقتصاد السياسي** الذي نشر في الطبعة الاولى من **الحوليات** . ان انجلس الذي عارض الاقتصاديين البورجوازيين الزاعمين بان الملكية الخاصة هي مبدأ مقدس لا يخرق ، قد اثبت بانها السبب الرئيسي لكل التناقضات التي تمزق المجتمع البورجوازي . وهذا الأثر الذي وصفه ماركس بأنه «عبقري» قد القى الضوء على الجوهر البورجوازي لمبادىء سميث وريكاردو ، وحدد قاعدة الانطلاق لاقتصاد سياسي بروليتاري . ان أثر انجلس الذي هو نقد للاقتصاد السياسي البورجوازي للنظام الرأسمالي الذي يغذيه، يتوصل الى نفي الرأسمالية و « ايديولوجيتها » الاقتصادية.

وهكذا ، فحوالي ١٨٤٤ ، وبالرغم من ان ماركس وانجلس عملا مستقلين احدهما عن الآخر ، وبالرغم من ان الوضع الاقتصادي والاجتماعي ، والمؤلفات التي درسها كل منهما لم تكن هي نفسها ، فقد توصل كلاهما الى النظر بشكل واحد تقريبا الى المجتمع البورجوازي ورسالة البروليتاريا . ان

---

(١) ك ــ ماركس و ف. انجلس ، المؤلفات المختارة في مجلدين ، المجلد الثاني ، صفحة ٣٧٣ ــ ٣٧٤ .

صداقتهما ونضالهما المشترك ضد الايديولوجية البورجوازية ، وصياغة النظرية العلمية للطبقة العاملة ، يعود تاريخها الى تلك الفترة .

المبادىء الاساسية

في ١٨٤٥ ـ ١٨٤٦ ، صدر كتابا **العائلة المقدسة والايديولوجية الالمانية** ، وهما كتابان لهما اهمية رئيسية عارض فيهما ماركس وانجلس الفلسفة المثالية التي كانت سائدة آنذاك في المانيا ، وعارضا بصورة خاصة « الهيغلية الفتية » والمذهب الذي تستقي منه مناشئها ، مذهب هيغل ، وعارضا مذهب هيغل بمفهوم جديد هو المادية الديالكتيكية . لقد صدر كتاب **العائلة المقدسة** في عام ١٨٤٥ . اما **الايديولوجية الالمانية** ، فان نصه الكامل الذي لم ينشر في حياة المؤلفين ، قد صدر للمرة الاولى في عام ١٩٣٢ في الاتحاد السوفياتي .

وشدد لينين في تلخيصه **للعائلة المقدسة** على المقاطع التي يضع فيها ماركس وانجلس المبادىء الاساسية لنظريتهما ، وخاصة آراء ماركس حول **الدور الثوري** للبروليتاريا ، التي ظهرت بشكلها النهائي تقريبا منذ ذلك الوقت ، والطريقة التي ينظر فيها ماركس الى نظرية قيمة العمل ، وكذلك فكرته الرئيسية ، فكرة العلاقات الاجتماعية للانتاج .

ان ماركس وانجلس ، بتطبيقهما الديالكتيك على تحليل العلاقات الرأسمالية والطبقات الكبرى للمجتمع البورجوازي قد بنيا نظرية تظهر من جهة

الطابع الموضوعي والضروري ، المحتم اذن ، للنزاع بين البروليتاريا والبورجوازية ، وتحدد من جهة اخرى القانون الاساسي للديالكتيك المادي : وحدة وصراع الاضداد . وقد اكتشفا جانبين للتناقض الذي يعارض بين العمل والرأسمال ، الجانب المحافظ (البورجوازية) والجانب الثوري ، (البروليتاريا) ، واثبتا بان منطق هذا الصراع يقود موضوعيا وبالضرورة الى الثورة الاشتراكية الامر الذي يشكل مساهمة لا تقدر بثمن ، ليس فقط في نظرية الشيوعية العلمية ، بل ايضا في الديالكتيك المادي بصورة عامة .

وخلافا لما يزعمه الاقتصاديون البورجوازيون فقد اثبت ماركس وانجلس ان تناقضات المجتمع الرأسمالي لا تشكل وضع اختلال عابر ، بل تسيطر على مقدراته ، وان الاساس ذاته لهذا المجتمع هو خليط متشابك من التناقضات والوقائع التي تتداخل والتي تحدد بعضها البعض كي تصبح متنافية في النهاية . ولا يمكن الفصل مثلا بين فوضى الانتاج والنظام الشرعي البورجوازي . وجاء في كتاب **العائلة المقدسة** « ان فوضى المجتمع البورجوازي هي اساس التنظيم العام الحديث ، كما ان هذا التنظيم هو بدوره ضمان هذه الفوضى . وبالرغم من تعارضهما ، فكل منهما يشترط الآخر » . (١)

---

(١) ك. ماركس . المؤلفات الكاملة ، المؤلفات الفلسفية ، مجلد ٢ – باريس ١٩٢٧ صفحة ٢١٠ .

ان ماركس وانجلس اللذين وجها راس حربة انتقادهما ضد فلسفة مثالية تزعم بانه « ينبغي البحث من جهة الجماهير لاكتشاف العدو الحقيقي للفكر » قد قدما حججا تثبت : اولا ، بان الافكار بحد ذاتها ، دون علاقة مع الحاجات المادية للمجتمع، هي افكار عقيمة . وثانيا ، ان الجماهير تشكل القوة الحاسمة التي يتعاظم دورها بالضرورة بمقدار ما يتطور المجتمع . وثالثا ، ان الشخصيات التاريخية العظمى هي كذلك بالتحديد ، لانها تعبر عن مطالب ومصالح طبقات معينة .

وبكتاب **الايديولوجية الالمانية** تم اجتياز مرحلة جديدة في وضع المبادىء الاساسية للمادية الديالكتيكية **والتاريخية** ، والشيوعية العلمية . وقد انجز ماركس وانجلس انتقاد الفلسفة المثالية الالمانية ، وخاصة فلسفة التاريخ . وبالتخلي عن التعبير المبهم لـ « الانسانية الواقعية » اطلقا بعد امعان النظر ، على مبدئهما اسم « المفهوم المادي للتاريخ » . واطلقا على نفسيهما « الماديين الشيوعيين » . وفي هذه الزاوية البصرية الجديدة اثبتا بان فيورباخ ليس ماديا الا في مفهومه عن الطبيعة ، انه يظل مثاليا على صعيد علم الاجتماع .

ان كتاب **الايديولوجية الالمانية** الذي اغنى بدراسات جديدة ، عميقة وحسية ، الموضوعة التي وضعها ماركس منذ ١٨٤٤ ، في **المخطوطات** وهي موضوعة تقول بان العمل (الانتاج) يلعب دورا حاسما في تطور الانسان والانسانية ، وصف باختصار عملية تطور القوى المنتجة وعلاقات الانتاج

وقدم بذلك براهين عديدة على واقع ان صراع الطبقات هو محتم ، وان الثورات الاجتماعية والانتقال الى مجتمع دون طبقات بواسطة الثورة الشيوعية ، هي أمور تتفق والقوانين الموضوعية ، وتحدد من قبلها . ويقول المؤلفان ان الافكار التي تسيطر داخل مجتمع ما هي افكار الطبقة المسيطرة، في حين ان الدولة ، مهما كان شكل الحكم (ملكي ام جمهوري ام ديمقراطي الخ) تمثل دائما الديكتاتورية السياسية للطبقة التي تملك وسائل الانتاج. وهذا الشكل في طرح المسألة قد بعث لدى ماركس وانجلس فكرة ديكتاتورية البروليتاريا .

ومن وجهة النظر المادية والتاريخية هذه ، انما كافح ماركس وانجلس افكار اشتراكية بورجوازية صغيرة تزعم بأنها « اشتراكية حقيقية » وانصارها هم ك. غرون ، (١٨١٧ — ١٨٨٧) ، و م. هيس (١٨١٢ — ١٨٧٥) و أ. لوننغ (١٨١٨ — ١٨٦٨) الذين عارضوا الاشتراكية الطوباوية الانكليزية والفرنسية . الا انهم بدلا من ان يحققوا تقدما بالنسبة لتلاميذ سان سيمون وفورييه واوين ، قد افقروا مبادئهم بتجريدها من كل ما كان يمكن ان تحتويه من بشائر مفهوم علمي للحياة الاجتماعية والمثل الاعلى الاشتراكي . وخلافا لاسلافهم الفرنسيين والبريطانيين فهم لم يكونوا يمثلون البروليتاريا في عز تكونها ، وكانت نظرياتهم تعكس وضع البورجوازية الصغيرة ، المذعورة من نهوض الانتاج الرأسمالي الكبير وافق تحول المنتجين الصغار الى بروليتاريين. وكان حلم « الاشتراكيين

الحقيقيين » اذن « درء الرأسمالية » . وهم بعد ان شبهوا الاشتراكية بنوع من مملكة الانتاج الصغير الحرفي ، سعوا ليثبتوا ، متجاهلين الوقائع التي لا تخفى حقيقتها على احد ، ان الحركة الاشتراكيـة لا صلة لها بوضع ومطالب الطبـقة العـاملة ، وان المثل الاعلى الاشتراكي ينطلق من العقل المجرد ، اي من **الفلسفـة** (*).

ان ماركس وانجلس بانتقادهما بصرامة الصيغ التجريدية ل « الاشتراكية الحقيقية » قد اثبتا بان هذا المبدأ يعكس التأخر الاقتصادي لالمانيا ويهدف الى ادامته .

ولدى صياغة نظريتهما، فان مؤسسي الماركسية قد اتخذا موقفا ، كما راينا ، ضد الايديولوجيـة البورجوازيـة ، والبورجوازية الصغيرة فـي آن واحد . فالمعركة التي جرى خوضها ضد الاشتراكية البورجوازية الصغيرة ، التـي عارضاها بانتـقاد بروليتاري للمجتمع الرأسمالي ، تسجل مرحلـة اساسية في تكون مفهومهما عن العالم . وسنفهم اذن في سياق الافكار هذا اهمية **بؤس الفلسفة** ، حيث قام ماركس بانتقاد معمق لمذهب التناقضات الاقتصادية ، او فلسفة البؤس لبرودون ، (١٨٠٩ — ١٨٦٥) .

« ان الملكية هي السرقة » : نعرف الفكرة الشهيرة لهذا الاشتراكي البورجوازي الصـغير الفرنسي ، الذي كان يسمي مع ذلك بمثابة «ملكية» ، الصناعة الرأسمالية الكبرى ، بعكس الانتاج البضاعي الصغير وملكية الحرفي الصغير التي كان يعتبرها صحيحة

وطبيعية ومطـابقة للجوهر الانساني . وقد ادان ماركس بشـدة هـذه الطريـقة لتـزيين الملـكية البورجوازية الصغيرة ، بكل الفضائل لانها كما قال لا تحرر من نير الرأسمالية ويمكن ان تتعايش تماما مع الاستثمار الرأسمالي للبروليتاريا ، وكذلك مع استثمار الملاك الصغير الذي يملك وسائل انتاجه .

وبعكس برودون ، الذي اكد بان تطبيقا سيـئا لقانون القيمة هو في منشأ الملكية الرأسماليةوالذي ادعى ابوة اكتشـاف قانون القيمة « حقيقي وعادل » يجعل من المستحيل كل استئثار بالعمل من قبـل الرأسمالي ، اثبت ماركس ان الرأسمالية لا تخالف بشيء قانون القيمة وان الامر لا يتعلق بالتالي ابدا ب « تصحيح » او « تعديل » هذا القانون من اجل القضاء عليه ، بل يتعلق الامر بالانتقال الثوري الى نظام جديد للعلاقات الاجتماعية يتسم بالقوانـين الموضوعية الجديدة ، الملازمة لهذا النظام .

ان برودون الذي كان خصما للحركة العماليـة والنضال الثوري كان يعتقد بـان ليس هناك ايـة وسيلة للتغلب على الرأسمالية بأستثناء تلك التي يقترحها : يتوجب على المنتجين التخلي عن استعمال النقد ، ممارسة المقايضة بمنتجات عملهم . وهو لم يفهم ابدا بان سبب العلة ليس النقد بل استثمار الشغيلة ، أي الملكية الخاصة لوسائل الانتاج التي هي اساس الانتاج البضاعي والنـقدي الـذي لا يتوافق ، من حيث طبيعته مع المقايضة .

ان برودون الـذي كـان يظن نفسه ديالكتيكيا والذي نسب لنفسه فضل تطوير الاسلوب الهيغلي

كان في الواقع كما اثبت ماركس بين ما اثبته ، غريبا عن طراز الفكر الديالكتيكي . فقد حولت مخيلته المقولات الاقتصادية للرأسمالية الى افكار ازلية ثابتة ، ولكنهامشوهة باستعمال رديء .

ونعاين كم كانت ساذجة طريقة رؤيته للتناقضات الديالكتيكية للرأسمالية (التي يتحدث عنها كثيرا) حين اكد ان التعارض الرئيسي لهذا النظام يكمن في واقع ان له « جانبا حسنا » و « جانبا رديئا » ، (الثروة والبؤس) وانه ينبغي بالتالي الاحتفاظ بالجانب الاول والقضاء على الجانب الثاني . وهذا ما يثبت جهله العميق لسبب ان الثروة او الملكية الخاصة لوسائل الانتاج تولد حتما ، في ظل الرأسمالية ، البؤس او فقدان وسائل الانتاج لدى الجماهير الكادحة ، البؤس الذي يغني بدوره الرأسماليين. ونظرا لان هذين الجانبين لا ينفصلان، فينبغي التخلي عن النظام الرأسمالي بدلا من الرغبة في تحسينه .

وقد قال لينين عن بؤس الفلسفة انه كان الكتاب الاول الذي توصلت فيه الماركسية الى النضوج . وفي الواقع ، فيعثر فيه على مبادىء الشيوعية العلمية مطروحة بطريقة عبقرية .

الانقلاب الماركسي

ان دراسة الظروف التاريخية والمصادر النظرية والاكتشافات العلمية التي هي في منشأ الماركسية، وبحث المراحل الكبرى للنشوء التاريخي للفلسفة الماركسية ، كل ذلك يتيح ان تحدد بصورة مختصرة

الثورة التي حققها ماركس وانجلس في حقل العلوم الاجتماعية .

وهي تتلخص اولا في ان ماركس وانجلس قد بنيا نظرية علمية تقوم على مفهوم مادي وديالكتيكي للعالم وللتاريخ . وهي علمية فعلا لانها بدلا من ان تعارض العلوم الاخرى ، فهي تركب معطياتها وتضع حصيلتها وتقوم على اساس مجمل المعارف المكتسبة من قبل الانسانية . وحيث ان العلوم المفتنية باكتشافات جديدة دائما ، هي في حركة دائمة ، فان النظرية العلمية الماركسية هي نظرية خلاقة . وهي تتطور وتتضح اشكالها على ضوء التعاليم الجديدة المقدمة من قبل البحث ، وهي لا تسمح لا بجمود عقائدي ولا بالابتذال لدى حل المسائل النظرية والعملية .

ان النظرية الماركسية هي علمية ، لانها خلافا لمذاهب الماضي الفلسفية ، ابعد ما تكون عن الرغبة في معارضة الممارسة العملية ، بل تنضم اليها وتخدمها كمرشد . وهي تعمم المواد التي تقدمها لها الممارسة العملية ، ونستخلص استنتاجات التطور التاريخي للمجتمع ؛ وتغني بذلك الممارسة العملية . وقد قال ماركس وانجلس بان نظريتنا ليست عقيدة جامدة ، بل هي مرشد للعمل . ان النجاحات التي احرزها الاتحاد السوفياتي والبلدان الاشتراكية الاخرى ، التي هي في نهوض اقتصادي وثقافي عارم ، تجد تفسيرا لها ، بالدرجة الاولى ، بواقع أن الدول الاشتراكية والاحزاب الشيوعية والعمالية ، تعرف كيف تجعل اعمالها

مطابقة للمفهوم الماركسي ـ اللينيني عن العالم ، الامر الذي يتيح توجيه تطور المجتمع عن ادراك وحل المسائل الصعبة التي تطرحها التحولات الاجتماعية ، في أقصر المهل . وهذا المفهوم عن العالم هو في اساس علم للمجتمع يشكل الاقتصاد السياسي الماركسي والاشتراكية العلمية اجزاءه الاساسية . وقد حقق ماركس وانجلس ثورة حقيقية في تاريخ المبادىء الاقتصادية والاجتماعية بتحويلها الى علوم منتظمة ، صارمة ، مبدعة . وقد اتاح المفهوم الماركسي ـ اللينيني عن العالم الفهم العلمي للمراحل التي اجتازها الناس طوال تاريخهم وارشد جميع الشغيلة المستثمرين وكل الشعوب المضطهدة من قبل الامبريالية الى طريق المستقبل. ولهذا السبب ، فقد اصبحت النظرية الماركسية ـ اللينينية السلاح الروحي للملايين المكافحين الذين يخوضون النضال في سبيل مستقبل سعيد للجنس البشري .

هذه هي السمات الاساسية للانقلاب الثوري الذي حققه ماركس وانجلس في حقل العلوم الاجتماعية .

الفصل الثالث
الفلسفة الماركسية

بحسب تعاليم ماركس وانجلس ، فان الفلسفة لا يمكن ولا يجب ان تكون « علما مطلقا » يطمح الى « العثور على حل كل الالغاز » . وهي تشكل جزءا من العملية العامة للمعرفة ، وبالتالي تتطور دون توقف . وهي لن تصل اذن ابدا الى شكلها النهائي ، الناجز بصورة مطلقة ، لان الحقائق المطلقة ، بالرغم من وجودها ، تظهر لنا دائما بمثابة حقائق حسية بشكل تسلسلها عملية معرفة العالم . وهكذا ، فان الحقيقة لا تكتسب « في آخر مطاف » ؛ وينتج عن ذلك ان الفلسفة لا يمكن ان تكون علم الحقيقة المطلقة ، بعكس رأي بعض المفكرين ما قبل الماركسيين ، الذين عارضوا الحقائق النسبية للعلوم بالحقائق الفلسفية المعتبرة كحقائق مطلقة . فما هو اذن غرض الفلسفة . وكيف يحدد مكانها بين العلوم الاخرى في التراث الفكري للناس ؟

لكل علم غرضه الخاص ، شكل معين لحركة المادة ، وتشعب او عدة تشعبات او جوانب محددة

نوعيا لعملية ما ، او ترتيب او عدة ترتيبات لظاهرات، محددة بوضوح نوعا ما الخ. فالبيولوجيا تدرس الاجهزة العضوية لملكتي الحيوان والنبات ، وتنقسم اذن الى علمين اساسيين : علم الحيوان وعلم النبات ، الذي يتجزأ بدوره الى عدة فروع ، أي المورفولوجية (دراسة شكل النباتات) والسيستيماتيك (تصنيف ووصف الانواع النباتية) والتشريح ، (تركيب النباتات) والفيزيولوجيا (الوظائف العضوية) والاصطفاء (اختيار النباتات من اجل خلق انواع جديدة) الخ .

وبديهي ان كل علم ، بل وحتى كل فرع من فروعه المختلفة ، **يجب ان يحدد غرض دراساته** وان يعزله بالنسبة لغرض العلوم والفروع الاخرى. ان البيولوجيا لا تدرس الحالات الصلبة او السائلة او الغازية للاجسام ؛ والاقتصاد السياسي يترك جانبا جوانب الانتاج التي تهم الخبراء في البضائع.

وهكذا مثلا ، فنتيجة للتخصص وقسمة العمل بين الباحثين ، فان كل علم وكل فرع يتمتع باستقلال نسبي تجاه العلوم والفروع الاخرى . فعالم النبات لا يمكن ان يحل محل فيزيائي او باحث متخصص في تكنولوجيا المعادن ، وهو امر غير ضروري من جهة اخرى .

الا انه ينبغي تجنب قيام الحواجز المانعة بين العلوم والفروع ، لان اشكال حركة المادة والصفات والخصائص والحالات التي هي موضوع دراسات مختلف العلوم ، ليست ابدا منعزلة فعلا ، مهما كانت مختلفة ، ولكن توحدها وتحددها علاقات

وتحولات متبادلة . ومن المعلوم ان المادة تنتقل من الحركة الميكانيكية الى اشكال اخرى للحركة : الحرارة والكهرباء والتفاعلات الكيميائية . وينبغي اذن اقامة روابط بين مختلف الفروع . وهكذا ، فان البيولوجيا الحديثة ترتكز على الكيمياء وتلجأ الى الفيزياء والى الرياضيات ، الخ .

فما هو الشيء الذي يتيح لكل اختصاصي المحافظة على الاتصال مع الفروع الاخرى ، وان يختار ويحلل من المعلومات التي تقدمها له ، تلك التي يحتاجها ؟. بالطبع ثقافته العامة ومعرفة بعض الفروع المترابطة ، لكن ذلك لا يكفي لكي يتمكن من تلمس طريقه بين المسائل العلمية التي لا حصر لها .

وسيتوجب عليه اذن ان يكون مالكا لاستيعاب علمي لاشمل قوانين الطبيعة والمجتمع ، استيعاب ينتج عن تركيب نظري ، لكل حاصل المعارف المكتسبة من قبل الناس . وهذا ما يسمى مفهوما علميا عن العالم ، وهو في عصرنا المادية الديالكتيكية والتاريخية .

وفي حين ان مختلف العلوم ، كلا منها في اختصاصه ، تنكب على دراسة هذا الجانب او ذاك من الكون الذي « تفككه » اذا صح القول كي تكتشفه بصورة افضل ، فان الفلسفة الماركسية تهدف الى اعادة رسم الصورة النظرية للكون ، في وحدته ، **وانطلاقا من المبدأ الذي اثبته على نطاق** واسع البحث والممارسة العملية : ان الكون ككل ، أي وحدة العالم ، ليس تجريدا بل واقعا .

ومن المستحيل دون شك ، ومن غير المفيد السعي الى معرفة هذا الكل للكون بمجرد الجمع البسيط للمعارف المكتسبة . الا ينبغي ان يفترض عندئذ وجود قوانين عامة تتعلق ، بدرجة واحدة ، بالطبيعة والمجتمع ومعرفة العالم ؟ لقد ردت الفلسفة الماركسية بالايجاب على هذا السؤال الذي طرحته هي نفسها .

فهل تشكل هذه القوانين العامة حقلا على حدة ، مملكة ذات امتيازات موضوعة فوق القوانين « العادية » ذات التأثير المحدود في المكان والزمان داخل الطبيعة والمجتمع ؟ وهل هناك اولوية للقوانين العامة على القوانين الخاصة والنوعية ؟ كلا بالطبع . ألم يقل ارسطو وهو ينتقد افلاطون ان البيت بصورة عامة لا وجود له خارج البيوت الفعلية والمرئية ؟ وقال ماركس بانه لا يوجد بصورة عامة ثمر خارج الثمار الحسية : تفاح وكرز واجاص الخ. ونحن مدينون لانجلس بتلك الفكرة القائلة بانه لا توجد مادة بصورة عامة ، ولا توجد مادة بحد ذاتها، قابلة للعزل ومستقلة عن الاشياء المادية والفعلية . وهذه الفكرة تنطبق ايضا على اشمل القوانين المدروسة من قبل الفلسفة الماركسية ، لانها تتجلى في عمل كل القوانين الخاصة بكل مجموعة من الظاهرات ، وتشكل جوهر القوانين الخاصة التي هي موضوع هذا الفرع العلمي او ذاك .

ان كل قانون للطبيعة والمجتمع هو علاقة متبادلة اساسية ، ثابتة نسبيا ، بين الظاهرات . وهكذا ، فان حجم كمية من الغاز موضوعة في وعاء مغلق

يتوقف على الضغط . وتقرر قيمة بضاعة معينة كمية العمل الضروري اجتماعيا لانتاجها . ومن هنا ينبثق الاستنتاج التالي ذو الطابع الشامل : سواء في الطبيعة ام في المجتمع ، فان كل الظاهرات مرتبطة ببعضها البعض ، وتخضع لبعضها البعض ، وتحدد بعضها بعضاً بصورة متبادلة . وليس هناك شيء قابل للعزل لا علاقة له بباقي العالم . ويلاحظ في آخر تحليل ان « كل شيء يترابط » . وفي ايامنا هذه ، فان هذه الحقيقة تشكل جزءاً من الادراك العادي بالرغم من انها تفهم احيانا بشكل سطحي ، كما لو أن الامر لا يتعلق بعلاقات تحدد الاشياء ، بل بمجرد روابط ظاهرية . وفي الواقع ، فهذا هو كل جوهر المادية الديالكتيكية ، وهذه العلاقات المتبادلة ، وهذه التبعيات المتبادلة ، تشكل المحتوى العميق الموضوعي والضروري للظاهرات . ومثلا فان مايميز الماء عن بيروكسيد الهيدروجين والغاز المتفجر عن بعض الاجسام الاخرى ، ليست العناصر التي تؤلفها ، بل بناء روابط داخلية محددة جيدا ، نوعيا وكميا ، توجد بين هذه العناصر ، وهي الهيدروجين والاوكسيجين .

ان كل القوانين المسماة بالقوانين النوعية، المدروسة من قبل مختلف العلوم ، تظهر في آخر تحليل بمثابة قوانين الحركة ، حركة وتغير وتطور العالم الحقيقي، الامر الذي ينطبق ايضا على القوانين العامة التي تشكل غرض المادية الديالكتيكية والتاريخية . وبديهي ان الفلسفة الماركسية لا تكتفي بمجرد معاينة الطابع الشامل للحركة والتغير والتطور ، بل هي تدرس

آليتها وبنياناتها واشكالها المختلفة. وعلى هذا النحو انما استطاعت ان تثبت بان التغيرات التدريجية او الكمية تنتهي حتما بتغير نوعية الشيء (تغير نوعي). ومن المعلوم ان كل جسم صلب او سائل او غازي ، يعثر عليه في الطبيعة ، ينتقل من حالة الى اخرى من هذه الحالات الثلاث ، حالما يبلغ ارتفاع او هبوط الحرارة ، ثابتة معينة .

وهناك مثال آخر : العلاقات التي تجمع بين الاضداد . ولا شك ان جميع الناس متفقون على التسليم بوجود اضداد في عملية واحدة ، وبوجود تعارض بين الخير والشر ، بين الحقيقة والخطأ ، بين المتناهي واللامتناهي، بين الخاص والعام، بين الضرورة والصدفة ، بين الذاتية والموضوعية الخ . ويقال بصورة عامة ان الاضداد لا تتوافق ، اي ان احدها يستبعد الاخر ، بالرغم من انه منذ العصور القديمة، استطاع بعض الفلاسفة اليونان اطلاق افكار اعمق تقول بان الاضداد مترابطة . اذ ان وجود احدها مرتبط بوجود الاخر، الذي يحدده والعكس بالعكس. ويعتبر الماديون الدياليكتيكيون من جانبهم ان الاضداد تستبعد بعضها وانها تحدد بعضها بصورة متبادلة في آن واحد ، الامر الذي يعبّر عن تناقض موضوعي يسير نحو تجاوزه بواسطة تفاعل الاضداد («صراع» وتغيرات وتحولات متبادلة الخ) . ان الجذب والدفع والشحنات الايجابية والشحنات السلبية ، والاتحاد والتفكك للاجسام الكيميائية كل ذلك يشكل امثلة على هذا التفاعل الشامل .

ومن وجهة نظر المادية الدياليكتيكية ، فان التطور

هو اذن عملية متناقضة : فان صراع الاضداد يجري سواء في الطبيعة ام في المجتمع ، حيث يتجابه ويتعارض دوما القديم والجديد ، قوى التقدم وقوى الرجعية . ان دراسات الظاهرات الطبيعية والاجتماعية ، مأخوذة في تبعيتها المتبادلة ، وحركتها وتطورها ، تتيح الفهم العلمي والحسي ، فهم مناشىء واتجاهات تطورها اللاحق . والحقيقة ليست ابدا تجريدية ، بل حسية ، كما تعلن المادية الديالكتيكية ، الامر الذي يعني ان معرفة كل ظاهرة هي شيء ممكن ، بشرط بحثها مرتبطة مع ظاهرات اخرى وتحليل حركتها وتطورها ، والتغيرات التي تتعرض لها .
واليكم المثال التالي : كم من المرات سمعنا بان الماء يغلي بدرجة ١٠٠ سنتيفراد ، وهذا صحيح اذا كان الامر يتعلق بماء نقي كيميائيا يغلى في الضغط الجوي العادي . الا انه يغلي بحرارة ارفع او ادنى بصورة ملموسة ، بحسب ارتفاع (في وعاء التعقيم البخاري) او انخفاض او تواري الضغط (في الفراغ) . ونظرا لتنوع ظروف الضغط والعوامل الكيميائية ، (وجود او عدم وجود التلوث) فيحق لنا ان نقول ، نظريا على الاقل ، بان نقطة غليان الماء يمكن ان لا تكون نقطة معينة .

واليكم مثالا مستخلصا من الحياة الاجتماعية . فقد ادى تفكك المشاعية البدائية الى ظهور الملكية الخاصة والاستثمار والرق ـ وفي الوضع التاريخي لاوروبا قبل الفي عام ، فقد كان كل ذلك ظاهرات للتقدم لان الملكية الخاصة والاستثمار والرق ، كانت تمثل شكلا ضروريا لتطور الانتاج الاجتماعي . وببلوغ

هذا الانتاج في عصرنا مستوى اتساع مرتفعا جدا بفضل ازدياد مردود العمل نتيجة للاستخدامات العديدة للآليات المختلفة والكهرباء ، والاجهزة الاوتوماتيكية والماكينات السيبرنيتية ، فان الملكية الخاصة لوسائل الانتاج والاستثمار اخذا يشكلان بعد الان عوامل رجعية لانهما يكبحان سير المجتمع قدما الى الامام . ونرى بالتالي ان دراسة تاريخية وحسية للظاهرات هي وحدها التي تتيح تقييمها كما ينبغي .

ان الديالكتيك ، أو نظرية التطور ، يعود الى أقدم العصور . وقد ذكرنا هيغل بين أعظم ديالكتيكيي العصر الحديث . الا أن ديالكتيكه المثالي قد جهل العمليات الحقيقية ، عمليات المادة داخل الطبيعة والمجتمع . وقد أسس ماركس وانجلس الديالكتيك المادي .

أن ما يشكل السمة الاساسية والحاسمة للفلسفة الماركسية ، هو الوحدة والتداخل العميق والاندماج بين المادية والديالكتيك . أن مهاجمي هذا البناء ، الذين يتصدون لاساسه ذاته، يكررون القول بأن المادية لا تتوافق مع الديالكتيك ملمحين بذلك الى أنها مضادة له أيضا من حيث طبيعتها وان المثالية هي وحدها التي تستطيع أن تتفق مع الديالكتيك .

وهذه الحجة لا تصمد أمام المناقشة . ان التاريخ هو أول من يتكفل بدحضها لان العصور القديمة قد عرفت فلاسفة كانوا ، مثل هيراقليت ، ماديين وديالكتيكيين ، ولو انهم كانوا ساذجين ، لانه

كانت تنقصهم المعارف العلمية لدعم فلسفتهم . وبالطبع ، فلا يمكن الجمع بين دياكتيك مثالي ومادية غيبية . ومن ثم فلا ماركس ولا انجلس ، لم يعتقدا بأن مهمتهما هي محاولة الجمع بين المادية والدياكتيك ، بأشكالهما التي فات زمانها . وكما انهما جددا وأغنيا المادية السابقة لبحثهما ، فقد اخضعا أيضا الدياكتيك الى اعادة نظر جذرية وعميقة ، الى حد أن الدياكتيك والمادية بتوقفهما عن أن يكونا علمين مستقلين نوعا ما ، أو بالاحرى مختلفين ، قد شكلا العناصر التكوينية الاساسية لنفس النظرية الواحدة ، نظرية المادية الدياكتيكية .

وقبل ماركس وانجلس ، فان الدياكتيك ، حتى حين كان يرتسم في بعض المذاهب المادية ، لم يكن يطمح أبدا الى دور نظرية للقوانين العامة لتطور الطبيعة والمجتمع والمعرفة . وهو بالاحرى ، حين كان يتبناه ويعمقه المثاليون ، كان يصبح بالطبع تطويرا للفكر والعملية المنطقية . وكان ماركس وأنجلس أول من أثبتا وبرهنا نظريا ، انطلاقا من المعطيات الحسية العديدة ، التي وفرتها دراسة المجتمع، والتاريخ، والعلوم الطبيعية، شمول العملية الدياكتيكية ، الوحدة الدياكتيكية للفكر والمادة ، وللطبيعة والمجتمع .

وبالتالي ، فان الدياكتيك الذي هو أكثر من مجرد نظرية بسيطة ، يعتبر بالنسبة لماركس وأنجلس العملية ذاتها للمادة ، عملية الحركة الذاتية وتطورها العفوي : وحدة وتعارض الاضداد . وهو يعبر

بنظرية علمية عن التسلسل الديالكتيكي للوقائع التي تحدث موضوعيا في الكون . وقد كتب انجلس يقول « ان الديالكتيك المسمى بالديالكتيك **الموضوعي ، يسود في الطبيعة كلها** ، وان الديالكتيك المسمى بالديالكتيك الذاتي ، الفكر الديالكتيكي ، لا يفعل سوى انه يعكس ، في الطبيعة كلها ، سلطان الحركة بتعارض الاضداد »(١) .

ويعلمنا تاريخ الفلسفة ان كل المذاهب مهما كانت مختلفة ، يقوم كل منها على صيغة نظرية لاحد المفهومين ، المادي أو المثالي ، للعلاقات المتبادلة بين الفكر والمادة ، والظاهرات النفسانية والاشياء المادية والموضوعية والذاتية ، وهذا هو الخيار الرئيسكي لكل فلسفة . فالمساهمة التي لا تقدر بثمن للمادية قبل ماركس تتلخص في انها عمقت الروابط التي تجمع بين وعي الانسان لجوهره المادي ، وبين واقعه المحيط، وفي انها أثبتت ايضا ، باستباقها المكتشفات العتيدة للعلوم الطبيعية ، ان الفكر والوعي والروح بصورة عامة لا تشكل مبدأ أرفع من الانسان والطبيعة ، بل تشكل ، من جهة ، قدرة خاصة بالبنيانات المادية المحددة ، ومن جهة أخرى، انعكاسا للعالم الحقيقي خارج الذات المفكرة. الا أن تطور الفكر لم يجد مكانا له في هذه التعاليم لان تطور المادة الذي أدى ، في مرحلة معينة ، الى ظهور الوعي ، كان غير معروف فيها ، وكذلك تطور

---

(١) ف. انجلس ، ديالكتيك الطبيعة ، المنشورات الاجتماعية باريس ، صفحة ٢١٣ .

الفكر والوعي وفقا لتقدم المجتمع .

ومن وجهة النظر المادية والدياليكتيكية ، انما حسم ماركس وانجلس مسألة أولوية المادة . وقد اثبتا الضعف النظري للفلسفة القديمة للطبيعة ، التي كانت تؤمن بوجود « عنصر اولي » المادة الملموسة والاشياء الحقيقية . ان الفكر هو المبدأ الثاني ، الامر الذي لا يعني شيئا سوى انه نتاج وانعكاس مادة توجد خارج الوعي وبصورة مستقلة عنه . الا أن المادية الدياليكتيكية لا تسلم فقط بالانتقال من المادة الى الفكرة ، بل أيضا بتحول الفكرة الى مادة والذاتي الى موضوعي . الا نرى كل يوم ان أفكار ومشاريع وأماني الانسان تتجسد وتصبح حقيقة واقعة ؟ بل وهناك أيضا احلام تتحقق . وهذا التفاعل الدياليكتيكي الذي يقوم على أساس مادي حسي يجد في آن واحد ارفع وأبهر تعبير له في العلاقات التي تقوم داخل المجتمع ، بين الحياة المادية والعلم .

ان ممثلي المادية ما قبل الماركسية الذين عجزوا عن تطبيق الدياليكتيك على نظرية المعرفة (وهذا هو العيب الرئيسي لمبادئهم حسب راي لينين) كانوا يعتبرون المعرفة كنتيجة للتأثير الذي تمارسه الاشياء الخارجية على حواسنا . ان ماركس وانجلس اللذين وافقا على هذه المسلمة الرئيسية لنظرية الانعكاس ، قد اكدا بأن المعرفة تفترض ، بنفس الدرجة ، تأثير العالم الخارجي على الانسان ، وتأثير الانسان على العالم الخارجي ، أي الممارسة

العملية ، اساس ومقياس المعرفة .

قبل ظهور النظريـة الماركسية ، لـم يتخط الماديون ابدا حدود الذات المعزولة العارفة والمدركة بالحواس والفكر للواقع الخارجي، ومن غير التغاضي عن هذه البديهية المباشرة ، فان المادية الديالكتيكية تعتبر ان على النظرية في هذا الحقل ان تعطي بيانا عن مجمل عملية المعرفة المحققة من قبل الناس طوال تاريخهم . وهي مدعوة ، من وجهة النظر هذه ، الى تحقيق تركيب علمي لهذا الانتقــال من الجهل الى المعرفة ، ونتائجه ، التراث الفكـري للانســانية . وعندئذ تصبح المعرفة عملية تاريخية واجتماعية ، لا تسمح لنفسها ابدا بالاقتصار على نشاطات فردية معزولــة ، مهمــا كانت مآثرهــا العلميــة خارقة . وبدراسة ذلك ، انما استخلصت النظرية الماركسية ـ اللينينية للمعرفة ، القوانين الكبرى ذات الطابـع الشامل التي تسوس تقدم العلوم واتجاهات واساليب واشكال المعرفة العلمية .

وانطلاقا من موضوعة للمادية ما قبل الماركسية، وخاصة الموضوعة التي تضع مصدر معارفنـا فـي تجربة الحواس ، فان المادية الديالكتيكية تنظر مـن زاوية جديدة الى العلاقة بين التجريبي والعقلاني . ويقول ماركس وانجلس ، ان التركيب النظري هـو ارفع درجة للمعرفـة ، المختلفة نوعيـا عن الصورة التجريبية للعالم الخارجي ، والذي يتجاوز محتواه مجموع المعلومات التي تأتي بها الحواس ، أي مـا نستطيع ان نراه ونسمعه ونلمسه الخ . وبالتالي ،

فمع أن كل نظرية تقوم على التجربة ، فهي تمثل صورة أعمق واكثر صدقا للواقع ، وتظهر لهذا السبب بالتحديد ، من ناحية معينة، كنفي ديالكتيكي لسلماتها الخاصة التجريبية . وهذا التعارض لن يجعلنا نرفض معطيات الحواس ، بل على العكس، فهو ينتج مباشرة من بحثها وتحليلها وتدقيقها . وعلى كل حال فحيث أن الفكر الذي يعكس العالم بشكل مفاهيم علمية ، هو في اختلاف مع الاحاسيس ، فينتج عن ذلك ان الاحاسيس لا تستطيع أن تخدم كمقياس لحكمنا . وعلى العكس ، فان الفكر ليس هو ايضا مقياسا لما تشعر به الحواس نظرا لانه ينطلق ، في اخر تحليل ، من الاحاسيس .

فما هو اذن مقياس الحقيقة ؟ ان الفلسفة ما قبل الماركسية التي أعطت التفضيل أحيانا الى العقل ، وأحيانا الى الاحاسيس ، قد ترددت في أجوبتها . وقد حل ماركس وانجلس هذه المسألة باثباتهما بأن هذا المقياس لا يمكن أن يكون سوى الممارسة العملية التي تحدد بأشكال مختلفة ، اعتبارا من المشاهدات وأدوات القياس حتى العملية الاجتماعية التاريخية، المحتوى الموضوعي لاحاسيسنا وتصوراتنا ، ومفاهيمنا وبنياناتنا النظرية .

المفهوم المادي للتاريخ

ان وضع المادية التاريخية جعل من الفلسفة المادية نظرية شاملة للطبيعة والمجتمع . وهذه مأثرة، علمية حقيقية لماركس وانجلس .

وحين انتقل الماديون ما قبل الماركسيين من دراسة الطبيعة الى دراسة الحياة الاجتماعية ، لم يلبثوا أن غادروا صعيد المادية ، اذ جعلوا من الوعي وأسباب الحق أو الواقع ، القوة المحركة للتاريخ . وهم بنظرهم الى المجتمع بشكل غيبي ، وبتطبيقهم لقوانين الميكانيك العقلاني ، قد غرقوا حتما في المثالية لانهم كانوا يجهلون الاساس المادي والاقتصادي للحياة الاجتماعية ، والدور الحاسم للممارسة العملية والانتاج بالدرجة الاولى، والنشاط الثوري للجماهير في الحقل الاجتماعي والسياسي .

وهكذا ، فان مخيلة الماديين الفرنسيين في القرن الثامن عشر قد حولت التاريخ الى سلسلة من الاحداث والحكايات التي تعاقبت دون أن تترك اي اثر على الجوهر الانساني المفترض بانه ثابت . وهم بتسليمهم ان كل واقع اجتماعي تحدده علاقات من السبب الى النتيجة ، فقد علقوا على الشيء الاساسي نفس الدرجة من الاهمية التي علقوها على الشيء الفرعي ، مقتنعين أن حبة رمل يقذفها البحر ، وان الغرور المفرط لربان ما ، وان نزوات امراة ، يمكن أن تكون سبب انقلابات وانعطافات كبرى في التاريخ . وقد أدى بهم ذلك الى القدرية التي تزعم بأن الناس غير قادرين على التأثير بشكل واع على مجرى التاريخ ، وانما يجري في المجتمع هو شيء مقرر سلفا بصورة لا مرد لها .

ويبدو انه كان من الممكن الاعتقاد ان المؤرخين المهتمين فقط بنقل الوقائع بامانة ، اعتمادا

على الوثائق الاصلية والمشاهدات الشخصية ، بدلا من الضياع في تخيلات مبهمة حول جوهر المجتمع والتقدم الخ ، كانوا اقرب الناس من المفهوم العلمي للتاريخ . ولكن كلا ، فان ما كان يعثر عليه في المؤلفات كان مجرد وصف للاحداث بشكلها الخام ، « التجريبي » . وقد كان ذلك مع الاسف كل قيمتهم لانه حالما كان يتعلق الامر بتقييم ظاهرة ما وتحديد أسبابها ، والبيئة والامتدادات ، كان يلمس فقدان كل أسلوب بحث علمي . ان المفكرين ، سجناء المثالية ، والذين كانوا يجهلون دور الجماهير الشعبية وانتاج الخيرات المادية ، كانوا يجعلون الاحداث متوقفة بصورة كاملة على قرارات الملوك وجنرالاتهم .

وقد سعت المدرسة الفرنسية من ١٨١٦ الى ١٨٤٨ مع تيري (١٧٩٥ — ١٨٥٦) ومينيه (١٧٩٦ — ١٨٨٤) وغويزو (١٧٨٧ — ١٨٧٤) الى التغلب على حالات التزمت هذه . وقد فسر هؤلاء المؤرخون الفترتين ، ما قبل الثورية والثورية في فرنسا ، بمثابة فترتي نضال العامة (البورجوازية والفلاحين والعمال) ضد النبلاء والاكليروس ؛ الذين كانوا يسيطرون على المجتمع الاقطاعي . وقد كانوا على حق : ان ثورة ١٧٨٩ قد أثارتها في ذروة هذا الصراع الطبقي ، المصالح الاقتصادية ، وتصميم العامة على الحصول على الحقوق المدنية والغاء امتيازات الطبقة الحاكمة . الا أن تيري ومينيه وغويزو الذين انكروا وجود التناقضات الطبقية

داخل العامة ذاتها ، قد ادعوا بأن الثورة بالغائها الامتيازات قد قضت على الظلم الاجتماعي والطبقات، ومن هنا تنبثق ادانتهم للبروليتاريا التي خاضت ، غداة الثورة ، معركة ضد البورجوازية . ونرى اذن انهؤلاء المؤرخين لم يكفوا ابدا عن انيكونوا مثاليين، لانهم وضعوا محرك العملية التاريخية في وعي وآراء الناس .

وقد لفت لينين النظر الى طابعين خاصين للمذاهب ما قبل الماركسية للمجتمع : فأولا ، فهي كانت تشير على الاكثر الى الافكار والاسباب التي كانت تبدو انها سببت أعمال هذه الشخصية أو تلك ، وكانوا يتجاهلون بصورة كاملة الاسباب المادية العميقة . وثانيا ، فهي كانت تعتبر ، كشيء غير موجود ، دور الجماهير الشعبية في التاريخ العالمي الذي هو مع ذلك دور حاسم وقاطع ، كما كانت تتجاهل دور انتاج الخيرات المادية . ومن ثم ، فلا داعي للاستغراب لان كل هذه المذاهب كان اصحابها من ممثلي البورجوازية وايديولوجييها .

وقد كتب ماركس وانجلس : « أن كل المفهوم القديم للتاريخ ، اما أنه ترك هذا الاساس الفعلي للتاريخ دون أن يوليه أدنى اهتمام ، أو انه لم يشاهد فيه سوى شيء ثانوي دون أدنى علاقة مع سير التاريخ . وبحسب هذا المفهوم فان التاريخ يجب أن يكتب دائما اذن وفقا لقاعدة تقع خارجه ، وهكذا يظهر الانتاج الحقيقي للحياة بأنه ليس تاريخيا ، في حين أن ما هو تاريخي ، يظهر بمثابة

ما هو منفصل عن الحياة المبتذلة ، وكأنـه خارج فوق العالم . وهكذا ، فان علاقة الانسان والطبيعة تستبعد من التاريخ ، الامر الذي ينبثق عنه تعارض بين الطبيعة والتاريخ . وهذا المفهوم لم يستطع أن يرى أذن في التاريخ سوى أحداث كبرى سياسية وصراعات دينية ، وبصورة عـامة نظرية ، واضطر، بالنسبة لكل فترة تاريخية ، على أن **يشارك** بصورة خاصة **وهم هذه الفترة »**(١) .

ان علماء الاجتماع ما قبل الماركسيين الذيـن عاينوا فقط أن الناس لا يستطيعون العيـش دون خيرات مادية ، وانه يقتضي بالتالي أن يتكفل أحد ما بانتاجها ، (أغذية وألبسة الخ) ، فهم لـم يكونوا يفكرون أبدا بأن تطور الانتاج المادي من نتيجته ليس فقط تلبية الحاجات الفورية والاولية للانسان ، بل أيضا تطـور الانسان هـو ذاتـه ، القـوة المنتجـة الحاسمة ، وتقدم العلوم ، بـل وفضلا عن ذلـك ، فهو يقرر في اخر تحليل ، طابع البنيانات والعلاقات الاجتماعيـة . وتعتبر نظريـة ماركس وانجلـس الانتاج بمثابة وحدة القوى المنتجة وعلاقات الانتاج. ويشكـل النـاس « المنتجـون » والادوات التـي يستخدمونهـا في نشاطهـم في العمل (وسـائـل الانتاج) القوى المنتجة التي يقرر مستواها وطابعها ،

---

(١) ك. ماركس ، المؤلفات الكاملة ، المؤلفات الفلسفية ، مجلد ٦ ـ الايديولوجيـة الالمانية ، باريـس ١٩٣٧ ، صفحـة ١٨٦ ـ ١٨٧ .

طابع علاقات الانتاج . وليس وليد الصدف اذن ، بل تحت التأثير الحاسم للمستوى الذي بلغه الناس في مجال القوى المنتجة أن تكون قد نشأت موضوعيا وبالضرورة ، علاقات الانتاج النموذجية لمجتمع الرق ، والمجتمع الاقطاعي والمجتمع الراسمالي . فعلاقات الانتاج الرأسمالية لم يكن من الممكن التفكير بها على مستوى تطور القوى المنتجة الذي كان قبل الفي عام ، مستوى اليونان ، حيث قرر الولادة الحتمية لعلاقات الرق . وفيما بعد ، فتحت تأثير تقدم الانتاج ونمو القوى المنتجة ، فان هذه العلاقات قد فات زمانها والغيت ، وذلك تماما كما فات في أيامنا زمن العلاقات الرأسمالية التي لم تعد تتفق مع نهوض القوى المنتجة التي تحوزها الانسانية اليوم . ان الضرورة الملحة لعصرنا هي اذن اقامة علاقات انتاج اشتراكية تفتح امكانيات لا محدودة لتقدم الانتاج ، وتتيح تلبية الحاجات المادية والروحية المتزايدة لملايين الشغيلة .

لكن علاقات الانتاج لا تمثل فقط شكلا لتطور القوى المنتجة ، بل تشكل ايضا ، من مجموعها ، الاساس الاقتصادي الذي يتوقف عليه البناء الفوقي السياسي والحقوقي للمجتمع ، أي الدولة وايديولوجيتها الرسمية . وهذا يعني أن الانتاج يقرر في نهاية الامر كل جوانب الحياة الاجتماعية ، وكل سيماء المجتمع .

ولم يستطع علماء الاجتماع ما قبل الماركسيين ان يلمسوا العوامل التي تسود ظهور الملكية الخاصة ،

والطبقات والدولة ، وهي ظاهرات كان أغلبهم يعتبرونها من ناحية أخرى بمثابة ظاهرات طبيعية ، ولا يمكن تجاوزها . وقد اثبت ماركس وانجلس ان الملكية الخاصة والطبقات والدولة ، تظهر بالضرورة في درجة من تطور القوى المنتجة سينتهي بها الامر ذات يوم في جعلها غير ذات جدوى . وعندئذ ، فان كل تاريخ الانسانية ينظر اليه وكأنه تسلسل منتظم يخضع لقوانينه الخاصة .

ان بحث دور الانتاج المادي قد ابرز الروابط السببية للتاريخ . أن اتساع انتاج الخيرات المادية هو أساس تقدم المجتمع ، وبالتالي ، يعطي مقياسه . وفي الحقيقة ، فان العلاقات الاجتماعية ، الاكثر تقدمية هي بالطبع تلك التي تحفز على أفضل وجه نمو القوى المنتجة . وكان ذلك بصورة خاصة حالة العلاقات الرأسمالية ، الارفع بكثير من وجهة النظر هذه من علاقات الانتاج الاقطاعية ، والتي ظلت كذلك خلال قرون قبل ان تصبح كابحا لانتاج قادر لولا وجودها على تطور أسرع بكثير ، كما أثبتت تجربة البلدان الاشتراكية . ولكي يتمكن الانتاج من التقدم ، فهو يتطلب شكلا ملائما لا يمكن أن تعطيه له الا اعادة التنظيم الاشتراكية للمجتمع .

ان المادية التاريخية هي تاريخ الناس في مجموعهم ، عملية تسوسها قوانينها الداخلية ، وحيث كل مراحل التقدم الانساني تملك كل منها نوعيتها التي تحددها بالنسبة للعملية السابقة ، وحيث كل العصور (التشكيلات الاجتماعية

والاقتصادية ، وفقا لتعبير ماركس وانجلس) تختلف بعضها عن بعضها الاخر بدرجة تطور القوى المنتجة وطابع علاقات الانتاج . وهذه التشكيلات التي تعاقبت خلال التاريخ ، يبلغ عددها خمس تشكيلات وهي المجتمع البدائي ومجتمع الرق ، والاقطاعية ، والراسمالية ، والشيوعية .

ان ماركس وانجلس ، بانجازهما بناء المادية حتى ذروته ، وبحسمهما كماديين مسألة العلاقة بين الادراك والكائن ، انما استطاعا التوصل الى مفهومهما عن التاريخ . وفي الواقع ، فاذا كان الادراك هو نتاج المادة وانعكاس الواقع الخارجي ، فان ادراك المجتمع هو في آن واحد نتاج وانعكاس طراز وجوده .

وبعد أن أثبت ماركس انه لا يمكن الحكم على عصر ما وفقا للعقلية السائدة ، مثلما انه لا يمكن الحكم على انسان ما بحسب رأيه بنفسه ، وان الادراك الاجتماعي للناس (العلم والسياسة والدين والاخلاق الخ) يتوقف على وجودهم الاجتماعي ويعكسه ، حدد مفهوم وجود المجتمع باستخلاصه الواقع الاساسي للحياة الاجتماعية : اسلوب انتاج وسائل العيش .

وكتب لينين يقول : « كيف توصل ماركس الى هذه الفكرة الاساسية ؟ بدراسته على حدة المجال الاقتصادي بين مختلف مجالات الحياة الاجتماعية . وبدراسته على حدة ، بين كل العلاقات الاجتماعية ، **علاقات الانتاج** المعتبرة كعلاقات

اساسية، رئيسية، وتقرر كل العلاقات الاخرى »(١)
وهذا ما لم يتحقق أبدا قبله . ان تعقد الواقع الاجتماعي كان يمنع علماء الاجتماع من رؤية هذه العلاقات « البسيطة » بحسب كلمة لينين ، ولكن الحاسمة . وكانوا يبدأون دائما ببحث أشياء الحق والسياسة ، ويرون اسم هذه الشخصية أو تلك مرتبطا بذلك المبدأ أو تلك المؤسسة ، وكانوا يتوصلون دائما الى الاستنتاج بأن الافكار المسيطرة والمؤسسات السياسية ومؤسسيها يقررون سير التاريخ . وكان ذلك مفهوما مثاليا .

والحال ، فنحن مدينون لماركس بمعرفتنا اليوم أن تفسير الايديولوجية والسياسة بالاقتصاد يقدم مقياسا ممتازا لتقييم الظاهرات التاريخية ، ومقارنة مختلف العصور وتوضيح فتراتها الانتقالية ذات النموذج النظامي . ان المفهوم المادي للتاريخ ، باثباته ان الناس هم صانعو تاريخهم وعلاقاتهم الاجتماعية التي تنشأ ، وان هذا النشاط الانساني لا يتوقف على عمل كيفي ، بل على ظروف مادية للعصر المعين ، جعل دراسة المجتمع علما . وفي حين انه بين علماء الاجتماع كان الذاتيون يؤكدون بأن الناس يصنعون تاريخهم لان المجتمع يجهل كل قانون موضوعي ، وكان القدريون يزعمون بأن الناس غير قادرين على تغيير أي شيء في تطور

(١) لينين ـ المؤلفات ، مجلد ١ ، المنشورات الاجتماعية باريس ، منشورات التقدم ، موسكو ، صفحة ١٥٢

المجتمع ، اثبت ماركس وانجلس الوحدة الديالكتيكية للنشاطات الانسانية واطارها الموضوعي ، وحدة الصفة والذات في العملية التاريخية والاجتماعية ، وحدة الحرية والضرورة . وكما أن الانسان يغير الطبيعة بواسطة المعرفة واستخدام قوانينها ، فكذلك ، فهو يحول العلاقات الاجتماعية بفهم حتميتها الداخلية . ان الماركسية التي ليست ذاتية ولا قدرية ، تضع في خدمة الناس معرفة قوانين التطور الاجتماعي ، التي هي سلاح فعال ، يضمن نجاح مبادرات التحول الاجتماعي ، الذي يعرف التاريخ مثالا ساطعا عنه : بناء الاشتراكية .

وهذه الحتمية الموضوعية للتطور الاجتماعي هي النشاط ذاته للناس ، لكنها مع ذلك مستقلة عن ارادتهم وعن ادراكهم . وبصورة عامة ، فان نقاد المفهوم المادي للتاريخ ، يظنون انهم يكتشفون فيه تناقضا صارخا ، وحتى محالا . وهذا الجانب من الاشياء يتخطاهم . وهم يقولون بأنه لا تؤسس أحزاب من أجل تعجيل خسوفات القمر . فما الحاجة الى النضال في سبيل الشيوعية ، طالما انكم تؤكدون بانفسكم بانها ضرورية موضوعيا ، واذن حتمية . وفي تصورهم ، فان الحتمية التاريخية والنشاط الواعي لا يتفقان .

والحال ، فلا ينبغي نسيان الشيء الاساسي ، فرق النوعية القائم بين ضرورة العملية الطبيعية ، والضرورة التاريخية . وهذه الاخيرة لا وجود لها خارج المجتمع ، وعلى العكس ، فهي تظهر ، وتتضح ،

وتتجسد ، وتتحقق عبر نشاطات الناس والطبقات والفئات الاجتماعية الاخرى ، وكذلك القوى المنتجة ، التي تكونت جيلا بعد جيل ، والتي تتكفل كل منها بما أتت به السابقة وتغنيه . ومن أجل اعداد نهوض الانتاج الحديث والثورة العلمية والتكنيكية الراهنة ، توجب أولا تقدم أستخدام الماكينات ثم تقدم البحث واستخدام الاجهزة الالكترونية والماكينات السيبيرنيتية الخ . فالناس ليسوا احرارا اذن باختيار قواهم المنتجة وبالتالي علاقاتهم الاجتماعية . الا انه في اطار علاقات أنتاج معينة ، فان أكثر من خيار يبرز أمام المجتمع : ان الضرورة التاريخية ليست وحيدة الاتجاه ، ولا تسير في خط مستقيم ، بل هي تتجسد بأشكال متنوعة وبوسائل مختلفة ، ووفقا لاساليب مختلفة .

وقد اثبت ماركس وانجلس انه من أجل السير قدما الى الامام ، فليس هناك من طريق اخر سوى الطريق الذي يؤدي من الرأسمالية الى الاشتراكية ، الامر الذي لا يمنع ابدا اقصى التنوع للسمات التي سيبرزها دون ادنى شك التطور اللاحق للمجتمع .

وتشكل الاشتراكية والشيوعية درجة جديدة من تطور المجتمع ، درجة رفيعة تأتي بالضرورة لتحل محل الرأسمالية : هذا هو الاستنتاج العام الذي ينبثق من المفهوم والتحليل والتفسير المادي للتاريخ ، ولتطور القوى المنتجة وعلاقات الانتاج ومناشىء الملكية الخاصة والطبقات والدولة .

الفصل الرابع
الاقتصاد السياسي الماركسي

انه علم قوانين انتاج وتبادل الخيرات المادية ، القوانين التي تختلف وفقا للتشكيلات الاقتصادية والاجتماعية . فقوانين الراسمالية مثلا تتطلب ظروفا مادية لم تكن موجودة بعد في نظام الرق أو النظام الاقطاعي ، وهذا الاكتشاف الذي نحن مدينون به للمفهوم التاريخي الماركسي للتطور الاجتماعي يثبت ألطابع التاريخي ، الانتقالي اذن ، للراسمالية ، في نفس الوقت الذي يدحض فيه خطأ بعض الاقتصاديين الغربيين الذي يتلخص باعتبار الراسمالية بمثابة شيء أزلي . وقال ماركس ، أن الدراسة العلمية للاقتصاد الراسمالي غرضها بالتالي القوانين التي تسود ولادة وتطور وتفكك علاقات الانتاج البورجوازية .

وقد بدأ ماركس هذه الدراسة بدراسة البضاعة ، هذا « العنصر الاخير » للمجتمع الراسمالي . وبالرغم من أن الانتاج البضاعي قد سبق الراسمالية بشوط بعيد ، الا انه داخل

المجتمع البورجوازي انما اصبح علاقة اجتماعية شاملة ومسيطرة . وليس فقط الاشياء ، بل قوة العمل والمؤهلات الفكرية ، والمهارة والجمال ، كل شيء يتحول فيه الى بضاعة .

وبالنسبة لنظريي الاقتصاد الكلاسيكي البورجوازي ، فان البضاعة هي نتاج العمل ولا شيء أكثر من ذلك . ألا انه ينبغي أن نستنتج من هذا التحديد ، اذا اردنا التسليم به ان البضائع قد وجدت دائما وستظل موجودة، طالما سيكون هناك مجتمع ونشاط منتج للناس . فهل الانتاج البضاعي ازلي اذن ؟

لقد عارض ماركس هذا التحديد الساذج والتجريدي . وبالنسبة له ، فالبضاعة ليست نتاج العمل بصورة عامة ، بل تجسيد شكل تاريخي للعمل . وبعبارة اخرى ، فان كل عمل يخلق أشياء مفيدة للانسان ، في حين أن البضاعة لا يخلقها سوى شكل نوعي من العمل يتسم على الاخص بهذا الجانب المزدوج : ألعمل الحسي والعمل التجريدي . ومثلا ، فان طاولة باعتبارها قيمة استعمالية أو شيئا يتيح تلبية حاجة ما ، هي نتاج عمل حسي ، وفي هذه الحالة ، نتاج عمل النجار وهذه الطاولة نفسها باعتبارها بضاعة أو شيئا يملك قيمة ، اذن قيمة تبادلية (أمكان تبادلها ببضاعة اخرى) ، تظهر كنتاج لعمل تجريدي يشاهد فيه تواري الفروق بين نشاطات العمل المختلفة . وبالتالي ، فان البضاعة هي نتاج عمل حسي وتجريدي في آن

واحد ، لم توجد دائما . فهي غير موجودة مثلا في النظام الاقطاعي حيث كان الفلاح ينتج من اجل نفسه وعائلته وسيده ، كل المنتجات الضرورية تقريبا ، وهي منتجات لم تكن تصبح بضائع أبدا بصورة عامة . ان الطابع المزدوج للعمل يظهر بمقدار ما يصبح العمل الاجتماعي مقسوما اكثر فأكثر حين يتولى كل منتج صنع شيء محدد ، أو بالاحرى جزء من شيء ، وحين يتيح تبادل المنتجات المحولة الى بضائع هو وحده تلبية حاجات المنتجين . وبالتالي ، فان العلاقات البضاعية والنقدية هي علاقات تاريخية ، بمعنى انها برزت في مرحلة معينة من تطور المجتمع ، وستتوارى في مجتمع دون طبقات ، مجتمع شيوعي . وفي الواقع فان الاشياء المنتجة لن تتحول فيه الى بضائع ، بل ستوزع مجانا وفقا لحاجات كل فرد .

وواقع ان البضائع ، مهما كانت مختلفة يمكن مبادلتها بعضها ببعضها الاخر ، هو واقع يكشف عن صفة مشتركة : قيمة او كمية العمل الضروري اجتماعيا لانتاجها . ان القيمة بالتحديد هي التي تشكل المقياس المشترك لكل البضائع : الفولاذ والقماش واللحم الخ .

وقد حمل ماركس تصحيحات هامة الى نظرية قيمة العمل التي وضعها سميث وريكاردو . وقد أثبت أولا ان العمل الانساني وحده هو الذي يخلق القيمة ، باستثناء كل عمل مجسد (الماكينات والادوات وغير ذلك من وسائل الانتاج) وكل قوة حيوانية ، قوة الخيول مثلا . والقيمة ليست شيئا ،

بل علاقة اقتصادية واجتماعية . وسنفهم بسهولة كم أن موضوعة ماركس هذه قد أبرزت واقع ان كل ثروة الرأسماليين يعود الفضل فيها للنشاط المنتج للشغيلة . ولا زلنا نشهد حتى في أيامنا هذه محاولات لاثبات العكس . فالاقتصاديان الاميركيان ل. كيلسو و م. آدلر ، يزعمان في **البيان الرأسمالي** ان القيمة تخلقها من جهة قوة العمل ، ومن الجهة الاخرى المعدات المستخدمة ، وان الرأسماليين لا يستولون بالتالي الا على « حصة المعدات » أما العمال ، فيحصلون على الباقي ، قيمة ما ينتجونه . فأين هو الاستثمار اذن ؟

أن ضعف مثل هذه الحجج يلمس لمس اليد . ان الشغيلة هم ايضا ، وليس الرأسماليين ، الذين ينتجون ويستخدمون المعدات التي هي مجرد وسيلة وشرط للعمل ، خلقه العمل .

وبعد أن طور ماركس نظرية القيمة أغناها باكتشاف جديد وساطع : أكتشاف قانون القيمة الزائدة ، حجر الزاوية في الاقتصاد السياسي الماركسي .

من أين يأتي الربح الرأسمالي ؟ هذا ما تساءل عنه نظريو الاقتصاد الكلاسيكي الانكليزي . ولا يمكن تفسير شيء بافتراض ان الرأسمالي يشتري بثمن أقل من القيمة ، ويبيع بثمن أكثر منها . وينتج عن ذلك بكل بساطة اعادة توزيع للارباح ، في حين ان مجموعها في الواقع لا يتوقف عن الازدياد . وهل يتوجب عندئذ التسليم بأن الربح ،

او القيمة الزائدة ينشأ خلال الانتاج ؟ ان المسألة التي طرحها الاقتصاديون البورجوازيون بهذا الشكل قد ظلت دون حل .

أما ماركس ، فقد نفذ من جانبه الى سر القيمة الزائدة . وقد اثبت أنها تنتج بكل توافق مع قانون القيمة . وكتب يقول ان ما يميز الراسمالية عن كل التشكيلات السابقة ، هو الحرية الشكلية لقوة العمل . ولا يستطيع أحد في الواقع ان يجبر البروليتاري على العمل ، كما كان الحال بالنسبة للعبيد والاقنان . ومع ذلك ، فليس له سوى مصدر واحد لوسائل عيشه : عمله . وقال ماركس إنه لو كان العمال يستطيعون العيش من الهواء لما استطاع أحد اجبارهم على العمل في سبيل الراسماليين . لكن العمال خلقوا ليعملوا . ونظرا لانهم لا يملكون وسائل انتاج خاصة بهم (وهي وسائل يملكها الراسماليون) فهم مضطرون للعمل لحساب الراسماليين ، طالما بقيت الراسمالية ، وان يضعوا أنفسهم برضاهم تحت النير ، وان يستسلموا للاستعباد . هذا هو الاكراه الاقتصادي الذي يختلف عن العنف (الاكراه غير الاقتصادي) الذي استعمل ضد العبيد والاقنان . ولاول نظرة ، فان العامل الذي يشتغل عند رب عمل ، يبدو وكأنه يعقد بملء خاطره نوعا من صفقة . ان هذا مظهر خداع لانه ليس للعامل حرية الخيار . وهو يتبع رب عمله « واجفا مترددا ، حرنا ، كشخص حمل جلده الى السوق ، ولا يمكن ان يتوقع سوى شيء

وأحد : الدباغة »(1) .

وقد أثبت ماركس أيضا ان الاقتصاديين البورجوازيين لدى حديثهم عن « سعر » أو « قيمة » عمل العامل المرغم على وضع نفسه تحت تصرف الرأسمالي قد ارتكبوا خطأ جديدا . وحيث أن القيمة هي العمل المجسد ، وحيث انها تقاس بالعمل المقدم ، فمن الباطل القول ان العمل تكون له قيمة . ان ما يملك قيمة ليس العمل أبدا ، بل قوة العمل التي يبيعها العامل الى الرأسمالي بشروطه ولمهل محددة (يوم أو اسبوع الخ) . وطالما ظل الرأسمالي يستخدم قوة العمل هذه ، فان البروليتاري ينتج قيمة تزيد عن اجره . ولولا ذلك لما استخدمه رب العمل أبدا . وفي هذا الوضع ، أليست العملية التجارية التي تشاهد بين البروليتاري والرأسمالي ، مخالفة لقانون القيمة الذي لا يسمح الا بمبادلات القيم المتعادلة ؟ الا ينتج العامل أكثر مما يقبض ؟ انطلاقا من الموضوعة القائلة أن قوة العمل ، وليس العمل بصفته هذه ، هي التي تملك الخصائص البضاعية ، استطاع ماركس أن يحل بشكل علمي هذه المسألة التي طرحها ريكاردو .

وتعتبر النظرية الماركسية ان قوة العمل تملك وجهي البضائع الاخرى ، اي القيمة والقيمة الاستعمالية ، مع العلم بان قيمتها يقررها حاصل

---

(1) ك. ماركس ، الرأسمال الكتاب الاول ، مجلد 1 ، المنشورات الاجتماعية ـ باريس ، صفحة ١٩٢ .

السلع الضرورية ، بمعدل وسطي ، اي وفقا للظروف التاريخية والثقافية والوطنية لبلد معين ، لمعيشة العامل وعائلته ، ولتلبية حاجاتهم اليومية ، المادية بالدرجة الاولى ، وباختصار، الضرورية لاعادة الانتاج الدائمة لقوة العمل المستخدمة من قبل الرأسمال . ويقبض العمال اجورا مختلفة . وبعضهم يتوصل لسد حاجاته وبعضهم لا يتوصل لذلك . الا ان مجموع الاجور لا يتجاوز ابدا القيمة الاجمالية لليد العاملة المستخدمة في الانتاج . ولو لا ذلك لاصبح البروليتاريون رأسماليين ، الامر الذي لا يحدث في الواقع . وما عدا بعض الاستثناءات التي تؤكد القاعدة مع ذلك ، فان لكل شيء مكانه في الانتاج الرأسمالي الذي يجري دون توقف : ان البروليتاريين والرأسماليين يظلون على ما هم عليه. وفي هذه الحالة ، فان ماركس يفترض افضل الاحتمالات بتسليمه بان البروليتاري يستعيد بصورة كاملة قيمة قوة عمله . فمن اين يأتي اذن هذا الفائض في القيمة ، هذه القيمة الزائدة التي تذهب الى الرأسمالي ، والتي بدونها يفقد الانتاج كل أهميته بالنسبة للرأسمالي ؟

ويقول ماركس ان قوة العمل ، شأنها شأن كل بضاعة اخرى ، لا تملك قيمة فقط ، بل ايضا قيمة استعمالية قادرة على تلبية بعض الحاجات ، وفي هذه الحالة ، حاجات الرأسمالي . والحال ، فأن القيمة الاستعمالية لقوة العمل ، هي قيمة نوعية بمعنى انها يمكن ان تنتج اكثر مما يلزم لاعالتها

واعادة انتاجها . وبالتالي ، فان الراسمالي حين يدفع قيمة قوة العمل ، يستولي على كل الزيادة التي ينتجها العامل ، او على الاصح الطبقة العاملة. وفي هذا انما تتلخص القيمة الزائدة ، وايضا الجوهر ذاته للاستثمار الراسمالي .

ان قانون القيمة الزائدة هو محرك الاقتصاد الرسمالي . ان نسبة القيمة الزائدة (نسبة القيمة الزائدة الى الاجر) تمثل درجة الاستثمار التي لم تتوقف عن الازدياد منذ وجود الراسمالية . وفي البداية ، قبل ان تتمكن الطبقة العاملة من ان تفرض بنشاطات متواصلة وحازمة تحديد ، ثم تخفيض يوم العمل ، كان هناك ميل الى زيادته دون حدود (تمديد وقت العمل الاضافي ، الذي هو جزء من يوم العمل الذي يشغله انتاج القيمة الزائدة) . وفي الوقت الراهن فان ازدياد القيمة الزائدة ، اي تعزيز الاستثمار يعود بصورة اساسية الى تخفيض جزء يوم العمل المستخدم في اعادة انتاج قيمة قوة العمل ، (وقت العمل الضروري) الامر الذي يجري الحصول عليه بالعقلنة الراسمالية وتشديد ومكننة واتمتة الانتاج . وخلال ساعتين او ثلاث ساعات ، يخلق العامل قيمة تعادل اجره ، ويعمل في الخمس او الست ساعات الباقية من اليوم من اجل رب العمل منتجا القيمة الزائدة . لقد دفعت الراسمالية الحديثة الى اقصى حد استثمار الشغيلة الذين لا يحصلون ، بشكل اجر ، الا على حصة تافهة مما انتجوه .

ويمكن ان نسمع ان رب العمل هذا او ذاك قد جمع رأسمالا عن طريق تخفيض رغباته ونفقاته . وهذا مجرد نقاق لان الرأسمال ينتجه الشغيلة ويمثل القيمة الزائدة المكدسة . ان تحويل القيمة الزائدة الى رأسمال هو الذي يشكل التكديس الرأسمالي . وفي حين ان الطبقة العاملة تستهلك بشكل ملكية شخصية ، (منتجات وخدمات الخ) ما حصلت عليه بشكل اجر ، فان طبقة الرأسماليين تحول الى رأسمال قسما ملحوظا من القيمة الزائدة . ان طراز التكديس هذا يعمق الهوة بين العمل والرأسمال ويتجه الى ان يخفض بصورة مستمرة حصة الشغيلة في الدخل الوطني . وهذا تماما ما يسمى القانون العام للتكديس الرأسمالي الذي اكتشفه ماركس ، والذي يظل نافذ المفعول حتى اليوم ، بالرغم من ان الطبقة العاملة قد استطاعت ان تنتزع بنضالها زيادات في الاجور وتحسينا معينا لظروف العمل . وهذه النجاحات المحرزة في النضالات الاقتصادية لا تغير مع ذلك شيئا في العلاقة الاساسية التالية : ان الرأسمال يسيطر على العمل ويستولي على القسم الاكبر مما ينتجه الشغيلة .

ان الاقتصاديين البورجوازيين بمضاعفتهم « دحضهم » لقانون التكديس الرأسمالي الذي اكتشفه ماركس وموضوعته القائلة بان مجموع الاجور لا يتجاوز ابدا بمعدل وسطي قيمة قوة العمل ، يتذرعون بواقع ان قسما من العمال يستطيعون ان يشتروا بمدخراتهم اسهم شركات

راسمالية ، الامر الذي يجعلهم شركاء في ملكية الرأسمال الذي يتحول على هذا النحو بصورة تدريجية من راسمال خاص الى رأسمال «مشترك» او « شعبي » .

وهذا التعليل باطل من الاساس . وفي الواقع ، فحتى في البلدان الاكثر تطورا ، حيث نجح العمال في اكتساب وضع افضل بالمقارنة مع باقي العالم الراسمالي، فان الاسهم المسماة بالاسهم «الشعبية» لا تمثل على اقصى حد سوى ١ ٪ من الرأسمال الوطني . وانه لامر جلي تماما اذن ان النسبة التافهة من هذه الاسهم التي تعود بصورة عامة الى الجزء الافضل اجرا من الطبقة العاملة ، لا تغير كثيرا ظروف البروليتاريا ووضعها بالنسبة لوسائل الانتاج ، ومكانها في الدورة المنتجة المنظمة على اساس الطراز الراسمالي . ان كبار الراسماليين بالتأكيد وليس صغار اصحاب الاسهم ، هم الذين يسيطرون على الشركات . ونعاين في نهاية الامر ان الاسهم « الشعبية » ليس الغرض منها سوى ذر الرماد في العيون ، وليست سوى نوع من الديماغوجية الاجتماعية ، و « اداة ملائمة » يستخدمها كبار ارباب العمل في مصلحة الاحتكارات ، من اجل تعبئة مدخرات الشعب .

ومهما بدا ذلك غريبا ، فيبدو ان ماركس قد توقع الحجج الرئيسية المقدمة في عصرنا من قبل دعاة « الرأسمالية الشعبية » ، اذ نقرأ بصورة خاصة في المجلد الثالث من الراسمال ان تأسيس الشركات المساهمة التي يشترك في اسهمها قسم

من السكان الكادحين لا يمكن ان يغير اي شيء اساسي في طبيعة اسلوب الانتاج الراسمالي .

ويتحدث بعض الاقتصاديين العاملين في خدمة البورجوازية عن « توزع » الراسمال ، الذي اصبح لا مركزيا وتعممه وتقسامه بين السكان . ان كيلسو وأدلر اللذين سبق ان استشهدنا بهما ، يقولان ايضا ان ذلك سيتيح في النهاية للجميع ان يصبحوا راسماليين . فمن الذي سيتكفل بالعمل في « بلاد ارباب العمل » ، هذه ؟. انهما يؤكدان ان العمال بعد ان يصبحوا راسماليين لن يتخلوا بذلك عن نشاطهم المنتج . حسنا جدا . ولكن ماذا ينتظر الراسماليون لكي يعملوا ؟ هذه اسئلة لا مخرج لها بالنسبة للاقتصاديين البورجوازيين .

والحال ، فكما تثبت الوقائع الاقتصادية فان تطور الراسمالية واعادة الانتاج الموسعة كما تجري في هذا النظام ، لا يؤديان ابدا الى « توزع » الراسمال ، بل على العكس ، الى تركيزه ومركزته ، وهي عملية ابرز ماركس روابطها السببية ، وهي مقررة فورا من جهة بتحويل القيمة الزائدة الى راسمال ، ومن جهة اخرى ، بالمزاحمة التي يسحق فيها الاقوى الاضعف .

وفي **الامبريالية اعلى مراحل الراسمالية** ،

الكتاب الذي كرسه لينين لتحليل تركيز ومركزة الراسمال ، نشاهد كيف ان عمل القوانين الداخلية لعملية التكديس هذه يؤدي الى ظهور احتكارات عملاقة ، ويصبح بذلك القسم الاكبر من الراسمال

الوطني ملكا لحفنة من اصحاب الملايين والمليارات .
وهذه الوقائع لا يمكن نكرانها ، ولذلك ، يتحدث كيلسو وأدلر عن ضرورة « ثورة رأسمالية » سلمية من شأنها ان تثير على النطاق الوطني ، « ازالة مركزة » ملكية وسائل الانتاج . وطالما ان الراسماليين ليست لهم مصلحة في ذلك ، فمن الذي سيتخذ هذه المبادرة التاريخية ؟ هل ستتخذها الطبقة العاملة ؟ عندئذ لن تكون هذه الثورة راسمالية بل اشتراكية .

وقبل قرن من مشاهدتنا كيلسو وأدلر يحملان القلم لانتقاد كارل ماركس ، تنبأ ماركس في **الرأسمال** بالاتجاهات التاريخية لاسلوب الانتاج الراسمالي . وقد ابرز بصورة خاصة ان التكييف الاشتراكي الرأسمالي (تركيز ومركزة الراسمال) يوفر الظروف المادية التي تنضج داخل الرأسمالية ذاتها ، لاجل التكييف الاشتراكي الذي سيتحقق بالثورة الاشتراكية . ان التناقص العددي السريع لارباب العمل نتيجة لمركزة الراسمال (نظرا لابتلاع الاحتكارات العملاقة للمؤسسات الصغيرة والمتوسطة) واستحالة ادارة الراسمالي الحديث بنفسه لانتاجه ، الدور الذي عهد به الى تكنيكي موصوف ، (الاداري) محتفظا لنفسه على الاخص بالوظيفة التي تتلخص بقبض الارباح ، وتطور راسمالية الدولة الاحتكارية ، كل ذلك يشكل عوامل اقتصادية تجعل من الضروري التجديد الاشتراكي.

وهكذا ، فان تعاليم فلسفة الماركسية تؤكدها تعاليم القسم الاقتصادي من هـذه النظرية : ان الانتقال من الراسمالية الى الاشتراكية هو ضروري ومحتم .

الفصل الخامس
الشيوعية العلمية

ان ماركس الذي اعتبر كشيء غير كاف موضوعة الطوباويين القائلةبان الاشتراكية تستجيب لـ «طبيعة الانسان» اجرى تحليلا علميا للرأسمالية واثبت الضرورة الموضوعية لتحويلها الى نظام اشتراكي .

وقبل ولادة الماركسية بمدة طويلة ، فان ممثلين بارزين للفكر الاجتماعي كانوا قد عاينوا بان انقسام المجتمع الى طبقات ، والصراع الذي تخوضه هذه الطبقات باستمرار ليس وليد الصدف . الا انهم بتجريمهم جنون الناس وأنانيتهم ورغبتهم في الفتوحات ، حلموا بان يروا يوما تصالح هذه الطبقات المتصارعة . ان ماركس وانجلس هما اللذان اثبتا ان طبقات متعارضة تظهر حتما في مجتمع يقوم نظامه الاقتصادي على الملكية الخاصة لوسائل الانتاج . وفي مثل هذه الظروف ، فان صراع الطبقات هو ضرورة حتمية وقوة محركة هائلة للتطور الاجتماعي . وبالانكباب على النزاع

بين البروليتاريا والبورجوازية اكتشفا بان صراع الطبقات هذا ام الصراع الذي خاضه الفلاحون ضد النبلاء الاقطاعيين والاكليروس تقرره قوانين لا تتوقف على ارادة البشر . الا ان هناك فرقا نوعيا بين البروليتاريا والطبقات التي عرفت قبلها الاضطهاد والاستثمار . ان البروليتاريا التي تشكل جزءا من مجتمع اكثر تطورا يحدده انتاج ذو طابع اجتماعي وصناعة كبرى تساعد توطد وتنظيم هذه الطبقة ، ان هذه البروليتاريا التي لا تملك وسائل انتاج ، تشكل بوجودها ذاته النفي الثوري للملكية الخاصة لوسائل الانتاج ، القاعدة الاقتصادية للراسمالية . ولذلك فان الطبقة العاملة هي المكافح الاكثر نشاطا والاكثر صلابة في سبيل اعادة التنظيم الاشتراكية ، ومرشد كل الطبقات الكادحة غير البروليتارية في النضال في سبيل خلع نير الراسمالية .

ومنذ فجر الراسمالية . وبمقدار ما كانت الرأسمالية تتطور ، مرت البروليتاريا عبر مدرسة قاسية ، مدرسة صراع الطبقات . وفي عهد الثورات البورجوازية (من القرن السابع عشر الى القرن التاسع عشر) كافحت بصورة عامة اعداء اعدائها متحالفة مع البورجوازية ضد النخبة صاحبة الامتيازات والمسيطرة في المجتمع الاقطاعي . ومن ثم ، اصبح نشاطها اكثر استقلالا خصوصا وان البورجوازية قد وطدت اسلوب انتاجها وسلطتها السياسية . ان البروليتاريا التي ادركت واقع ان تحررها مستحيل طالما لم يدمر

النظام الراسمالي قد انقلبت ضد البورجوازية .
وترتدي الدعاية لافكار الاشتراكية العلمية ، التعبير النظري للتجربة المكتسبة من قبل البروليتاريا في النضال في سبيل تحررها ، اهمية قصوى لانها تتيح تحديد مكانها بصورة افضل داخل المجتمع البورجوازي . وتلعب الاحزاب الشيوعية ، طليعة الطبقة العاملة ، دورا من الدرجة الاولى في هذه العملية التاريخية ، فتحمل الى داخل الحركة العمالية ، العفوية في البداية ، نظرية الاشتراكية العلمية كي ترفعها الى مستوى صراع طبقي واع ومنظم .

ويستمر نشاط البروليتاريا هذا في آن واحد في وجهه المثلث ، الاقتصادي والسياسي والايديولوجي . ان الاضرابات الاقتصادية التي هي معركة فورية يجري خوضها في اطار النظام الراسمالي من اجل تحسين مصير العمال ، توحد هؤلاء وتفهمهم ضرورة النضال السياسي ، الذي يشكل هدفه الاساسي ازاحة المستثمرين وانتزاع السلطة من قبل الطبقة العاملة والجماهير الكادحة. واخيرا فان النضال الايديولوجي الذي تخوضه الطبقة العاملة يحررها من العقلية المسيطرة للنظام الراسمالي ويساعد العمال والشغيلة الاخرين في ان يدركوا بصورة افضل وضعهم في مجتمع بورجوازي ، وان يكتسبوا معرفة عوامل ووسائل تحرير كل المضطهدين والمستثمرين .

ان الثورة الاشتراكية التي يقررها في الحقل الاقتصادي النزاع بين القوى المنتجة وعلاقات

الانتاج الراسمالية ، التي تعرقل تطور هذه القوى بدلا من تحفيزها ، هي مرحلة تاريخية تقع في ذروة نضال البروليتاريا . ومع ذلك ، فان هذا النزاع الاقتصادي لا يكفي لوحده بعد كي تحدث الثورة . وينبغي ايضا وجود وضع ثوري (ان « القاعدة » لا تعود تريد ان تعيش كما كانت تعيش و « الذروة » لا يعود بوسعها استخدام اساليبها الحكومية القديمة) ووجود العامل المسمى بالعامل « الذاتي » (الروح الثورية ، ودرجة تنظيمية كافية للطبقة العاملة والجماهير الكادحة الواسعة غير البروليتارية وحلفائها وتصميمهم الراسخ على التصدي للنظام البورجوازي) .

ويعود للاحزاب الشيوعية التي تضم الممثلين الاكثر وعيا للطبقةالعاملة تأمين هذه الروح الثورية ، تنظيم ووحدة البروليتاريا . وقد اثبت تاريخ حركة التحرر العمالية والفلاحية في روسيا القيصرية صحة هذه الموضوعة النظرية . وحين اثارت السياسة اللاشعبية للقيصرية التي زجت بالبلاد في الحرب العالمية الاولى ، حين اثارت في ١٩١٧ وضعا ثوريا ، تولى الحزب الشيوعي (البلشفي) بقيادة لينين ، قيادة الحركة الشعبية ضد الحرب الامبريالية ووحد الجماهير باطلاق شعار السلم والغاء الاوتوقراطية، وقادها في النهاية الى انتصار الثورة الاشتراكية .

وكتب ماركس وانجلس في البيان الشيوعي : « انهم (اي الشيوعيين) يكافحون في سبيل المصالح والاهداف الفورية للطبقة العاملة . لكنهم

في الحركة الراهنة يدافعون عن مستقبل الحركة ويمثلونه في الوقت ذاته » . (١)

ان النضال في سبيل الاشتراكية لا ينفصل عن النضال في سبيل الديمقراطية ، لان البورجوازية الحاكمة تسعى الى ان تحد بجميع الوسائل مما استطاع الشعب ان يكتسبه من ديمقراطية كي يكافح النير الراسمالي بصورة افضل. ويسير الشيوعيون في الجبهة الاولى للعمل ضد التمييز العنصري والقيود المفروضة على حق الاقتراع بشكل رسوم ، ودرجة التعليم الخ ، وضد الاستعمار والاستعمار الجديد، والممارسات الاخرى المخالفة للديمقراطية .

ان مسألة الحكم هي مسألة رئيسية في كل ثورة ، سواء كانت بورجوازية (يتعلق الامر عندئذ بالغاء السلطة ، او بالاصح ديكتاتورية الاقطاعيين واقامة سلطة البورجوازية) ام اشتراكية (الغاء ديكتاتورية البورجوازية واقامة ديكتاتورية البروليتاريا التي يشكل ارفع مبدأ لها تحالف الطبقة العاملة وكل الجماهير الكادحة غير البروليتارية) .

ومهما كانت اشكال الصراع الذي يجري بين البروليتاريا والبورجوازية ، فانه دائما ، في آخر تحليل ، صراع في سبيل السلطة السياسية . ولم تتخلَّ اية طبقة مستثمرة مسيطرة ، بملء

---

(١) ك. ماركس ، و ف. انجلس ، المؤلفات المختارة في مجلدين، المجلد الاول صفحة ٥٥ .

رضاها ، عن الحكم ، ولا تشكل البورجوازية استثناء . الا ان الثورة الاشتراكية يمكن ان تبرز تنوعا كبيرا في الاشكال وفقا للظروف التاريخية والوطنية الحسية . وهكذا ، فان ماركس وانجلس قد توقعا ، بالنسبة لبعض البلدان امكانية ثورة اشتراكية سلمية ، اي دون حرب اهلية ، وهي موضوعة اغناها لينين ، وكذلك في عهد قريب ، الاحزاب الشيوعية في وثائقها ـ البرامج ، واكدتها تجربة الديمقراطيات الشعبية في اوروبا الشرقية، حيث تحققت الثورة الاشتراكية بشكل سلمي نسبيا . ومن ثم فان عبادة القوة الغاشمةهي غريبة بصورة عميقة عن الشيوعيين الذين يعتبرون ان اللجوء الى العنف الثوري هو ضروري بمقدار ما تسلك البورجوازية التي لا تزال في الحكم طريق الحرب الاهلية .

ويزعم نقاد الماركسية ان الاعتراف بضرورة ديكتاتورية البروليتاريا يعني انكار الديمقراطية وفي الواقع ، فان ما يجري انكارهليس الديمقراطية بصورة عامة ، بل الديمقراطية البورجوازية التي هي شكل من اشكال ديكتاتورية البورجوازية ، وذلك تماما مثلما ان الديمقراطية والارستقراطية في عصر الرق كانتا شكلين مختلفين لديكتاتورية مالكي العبيد . ومن الخطأ بالتالي النظر بصورة تجريدية الى هذين المفهومين للديكتاتورية والديمقراطية ومعارضتهما ببعضهما باعتبارهما «عنفا» و « لا عنف » . ولا يتعلق الامر بديكتاتورية يمارسها افراد او بعض المجموعات بل طبقات

اجتماعية معينة ، منها ، في النظام الراسمالي البورجوازية ، الاقلية المستثمرة ، على الاكثرية المستثمرة . وعلى العكس ، فان ديكتاتورية البروليتاريا هي السلطة التي يمارسها الشعب الكادح تحت قيادة قسمه الافضل تنظيما ، الطبقة العاملة ، التي تقودها بدورها طليعتها : الحزب الشيوعي . ان المحتوى الرئيسي لهذه الديكتاتورية البروليتارية كما قال لينين ، ليس في العنف ، بل في القيادة التي تتكفل بها الطبقة العاملة تجاه الجماهير الكادحة الواسعة . وفي حين ان الديمقراطية البورجوازية لا تفعل سوى اعلان الحقوق المدنية ، فان الديمقراطية الاشتراكية تضمنها فعلا ، اذ يلغى الاستثمار ويتولى الشغيلة كامل السلطة . وبالتالي ، فان الديمقراطية الاشتراكية من غير ان تكتفي بمنح الحقوق المدنية الى جميع اعضاء المجتمع ، تبذل كل جهد لكي يتمكن كل شغيل من ممارسة هذه الحقوق بحرية . فهيئات الحكم مثلا لا ينتخبها الشغيلة فقط ، بل هي تتألف ايضا من عمال وفلاحين ومثقفين .

ان الديمقراطية الاشتراكية تمتد الى حقل الانتاج ، وهو شيء لم يشاهد ابدا في اي بلد راسمالي ، حيث يسود المصانع نوع من الملكية المطلقة : ان رب العمل لا يحتاج الى تكرار امره مرتين . وفي المجتمع الاشتراكي ، فنظرا لان المؤسسات هي ملك للشعب ، فان كل المسائل المتعلقة بالانتاج تسوى باتفاق مشترك من قبل الادارة والنقابات العمالية التي تتدخل تدخلا

مباشرا كل مرة يتعلق الامر فيها بالاستخدام والتسريح والتصنيف المهني ورفع الاجور والتعويض في فترة العجز المؤقت عن العمل الخ . وتملك النقابات اكثرية دور الاستجمام والراحة التي تضعها تحت تصرف الشغيلة .

وكتب ماركس في مؤلفه **انتقاد برنامج غوتا** ، ان ديكتاتورية البروليتاريا هي ضرورية في فترة الانتقال من الراسمالية الى الاشتراكية اي طالما بقيت الطبقات المستثمرة والملكية الخاصة وبقايا الراسمالية في الاقتصاد الوطني . وفي مجتمع اشتراكي متطور ، يتألف من طبقات كادحة وصديقة ، وحيث الفروق بين شغيلة المدن والريف تزول تدريجيا ، فان هذه الضرورة تلمس اقل فاقل وتتخلى ديكتاتورية البروليتاريا نهائيا عن مكانها الى دولة اشتراكية للشعب باسره ، كما تثبت تجربة الاتحاد السوفياتي .

وقد أبصر مؤسسا الماركسية فرقا نوعيا بين المرحلتين ، الاشتراكية والشيوعية ، مرحلتي نفس التشكيلة الواحدة الشيوعية . ان المرحلة الاولية والادنى (الاشتراكية) ، التي تظل مدموغة ببعض بقايا النظام الراسمالي الذي سبقها ، تقوم على اساس اقتصادي يتألف من الملكية الاجتماعية لوسائل الانتاج ، التي تستبعد استثمار الانسان للانسان ، وبالتالي كل دخل يقتطع من عمل الغير . ومن هنا ينبثق المبدأ الاساسي للاشتراكية : « من كل حسب قدرته ، ولكل حسب عمله » . ونظرا لان نصيب كل عضو من اعضاء المجتمع يتوقف

على العمل الذي يقدمه ، فان هذا المبدأ يحفز ، بشرط تطبيقه تطبيقا صحيحا ، الاهتمام المادي والمعنوي للشغيلة في زيادة الانتاجية والثروة الاجتماعية . الا ان ماركس لفت النظر الى الحدود التاريخية لهذا المبدأ الذي لا يمكن ان يلبي حاجات اعضاء المجتمع ، بغض النظر عن كفاءات كل فرد . وفي الواقع ، فان الناس الموهوبين ، والموصوفين ، والمتعلمين ، بصورة مختلفة ، يتلقون بدلات اتعاب بشكل مختلف : عدم مساواة في تلبية الحاجات لا يمكن تخطيها منذ المرحلة الاولى للاشتراكية بسبب تطور غير كاف بعد للقوى المنتجة .

ان تقدم القوى المنتجة هو الذي سيأتي بوفرة الخيرات المادية والروحية ، وسيأتي اذن بامكانية تلبية حاجات كل فرد بصورة افضل دائما بغض النظر عن كفاءته وجهده . ان الانتقال الى الشيوعية والى مبدئها : « من كل حسب قدرته ، ولكل حسب حاجته » ، سيبدأ عندئذ ، وهو انتقال تدريجي بالضرورة وفقا لوتيرة نمو القوى المنتجة ، والانتاج داخل المجتمع الاشتراكي . ان تطبيق مبدأ الشيوعية سيتيح تطورا حرا ومنسجما لكل فرد . ان قواعد القانون التي يحافظ عليها اليوم بممارسة سلطة الدولة ، سينتهي بها الامر الى ان تتحول الى قواعد اخلاقية يكفي الرأي العام لضمان تطبيقها . وفي هذا المجتمع الخالي من الطبقات ، فان الدولة التي يشكل اختصاصها الذي لا بد منه ، ان تكون جهازا للأكراه ، سيحل محلها بالتدريج ، نظام للادارة الذاتية الشيوعية ، وهي عملية تاريخية

سماها ماركس وانجلس « زوال الدولة » . وقد كتب انجلس يقول : « ان المجتمع الذي سيعيد تنظيم الانتاج على اساس مشاركة حرة ومتساوية بين المنتجين ، سيضع كل ماكينة الدولة ، هناك حيث سيكون مكانها بعد الآن : متحف الاثار القديمة الى جانب المغزل والفأس البرونزية » . (١)

ويزعم نقاد الماركسية انه يستحيل ماديا ان يدخل في الوقائع مبدأ الشيوعية (« من كل حسب قدرته ، ولكل حسب حاجته ») لانه لن يكون هناك سوى وسائل محدودة لتلبية الحاجات اللامتناهية لاعضاء المجتمع الانساني . ويرى البعض انه حتى بالنسبة لابسط الحاجات الاولية ، فان هذه الامكانيات تنخفض بأزدياد سكان الكوكب الارضي. وهذا شيء غير صحيح كما تثبت الثورة العلمية والتكنيكية الراهنة التي تحمل تأكيدا ساطعا لفكرة ماركس ، المعروفة على نطاق واسع : ان مجموع الثروة المنتجة من قبل المجتمع لا يتغير بالسبب المباشر لنوعية العمل المقدم ، بل بمقدار ما يتطور الانتاج ، وتقرره فضلا عن ذلك منجزات وتعاون العلم والتكنيك . وقد قال ماركس ان العلم يصبح قوة منتجة فورية . واليوم حيث اشاعة الكهرباء ، والاتمتة، وتطبيقات الكيمياء والسيبيرنيتية الصناعية والاستخدام السلمي للطاقة النووية توفر آفاقا جديدة لنمو القوى المنتجة ، فليس هناك أي مجال

---

(١) ك. ماركس و ف. انجلس ، المؤلفات المختارة بمجلدين ، المجلد الاول ، صفحة ٣٥١

للشك : ان حاجات اعضاء المجتمع مهما كانت كبيرة وعديدة ستلبى بفضل نهوض الانتاج ، وذلك بالرغم من واقع ان الانتاج له دور كبير في ولادة حاجات جديدة .

لم يحدد ماركس وانجلس من الاشتراكية والشيوعية سوى السمات الاساسية وهذا ما يميزهما ايضا عن الطوباويين لانهما لم يعتقدا ان من الممكن ان يصفا بصورة مفصلة رسوم المجتمع العتيد دون ان يكونا قد جمعا او حللا المواد الضرورية لتنبؤ علمي . لكن هذه المعلومات لم تكن متوفرة في ذلك العهد . وقد كتب لينين يقول : « لا يعثر لدى ماركس على ادنى ظل لمحاولة اختراع طوباويات واعطاء تخمينات باطلة حول ما لا يمكن معرفته . أن ماركس يطرح مسألة الشيوعية مثلما يطرح عالم طبيعي مثلا مسألة تطور نوع بيولوجي جديد بعد معرفة منشئه وتقرير الاتجاه الذي تدفعه فيه تغيراته » . (١)

وقد طور لينين نظرية ماركس وانجلس ، وخاصة فيما يتعلق بوسائل واساليب بناء الاشتراكية . وبعد ان لحق الاتحاد السوفياتي في مهلة تاريخية قصيرة نسبيا بالبلدان الراسمالية الاكثر تطورا من وجهة النظر التكنيكية والاقتصادية ، شغل المرتبة الثانية في العالم من حيث حجم الانتاج . وبالرغم من انه لا يضم سوى ٧ ٪ من سكان العالم فان نصيبه في الانتاج

---

(١) ف. لينين ، المؤلفات ، مجلد ٢٥ ، صفحة ٤٩٥

الصناعي العالمي يبلغ ٢٠ ٪ .

ويصور نقاد الماركسية احيانا كثيرة المثل الاعلى الشيوعي كفردوس ارضي بالشكل الذي يمكن ان يتصوره الناس السذج وحدهم . وهم يلاحظون ، بادعاء بان مكان الفردوس لبس على الارض ، بل في السماء . لكنهم مخطئون ، فان هذا الحلم لم يراود ابدا مخيلة الشيوعيين . واذا كانت اقوال التوراة صحيحة ، فليس هناك في الفردوس لا عمل ، ولا نشاط ، ولا علم ولا حب . لا شيء مما يصنع حياة الناس ، التي يعتزم المجتمع الشيوعي بالتحديد ان يرفعها الى اعلى درجة من التفتح .

ان الشيوعية ستعجل بصورة هائلة تطور المجتمع . ولن تقضي من بين كل التناقضات سوى على التناقضات التناحرية : ان الصراع بين القديم والجديد سيظل القوة المحركة للتاريخ .

ان النظرية الماركسية مدينة بحيويتها لنزعة انسانية ، حقيقية وعميقة . ونظرا لانها تقوم على معطيات علمية لا تدحض ، فقد اثبتت بان الانسان يستطيع ان يعرف العالم وان يحوله وان المجتمع يتطور وفقا للقوانين آلتي تقرر الضرورة الموضوعية لاعادة تنظيمه تنظيما شيوعيا مدعوا للقضاء على استثمار الانسان للانسان ، وتحقيق التحرر الحقيقي للشخص الانساني .

ما هي الحسنات التي توفرها الاشتراكية للانسان؟ وفيمَ تكمن قوة افكار الاشتراكية ؟ وما هي منجزات الاشتراكية في حقول الاقتصاد والثقافة والعلم ؟ وما هي المصاعب والمسائل التي يواجهها المجتمع الاشتراكي خلال تطوره ؟ وكيف يساعد النظام الاشتراكي تفتح الشخصية ؟

سيعاين قراء عديدون ان المثل العليا للاشتراكية العلمية المفعمة بالنزعة الانسانية وبالاهتمام بخير الفرد والمجتمع، تتفق في نقاط عديدة ومثلهم العليا.